الفن والتنمية المستدامة
(دراسة في علم الجمال التطبيقى)

اعداد

د/نجلاء مصطفى فتحى غراب
أستاذ مساعد فلسفة الجمال
قسم الفلسفة- كلية الأداب- جامعة بني سويف

المستخلص:

احتل الفن وضعًا ومكانة في التنمية في كل العصور والمراحل التاريخية. وهذا انطلاقًا من أنه إذا كانت التنمية تركز في المقام الأول على العنصر البشرى، باعتباره الركن الركين في أي مشروع نهضوي مثمر، من أجل بنائه بناءًا معنويًا ورفع كفاءته باعتباره القائد لعملية التنمية والفاعل الرئيسي فيها، فإن هذا لا يتم إلا من خلال الفنون والآداب التي بإمكانها أن تسهم في بناء مواطن واعٍ لديه قدر من الثقافة والذوق، يكون بكل تأكيد له تأثيره الملحوظ في التنمية المستدامة، التي لا تكتمل إلا بتثقيف العقل وتهذيب الخلق. ويبدو لي: أن هذا هو الدور الذى حرصت نسبة كبيرة من الفنون على القيام به منذ نشأة الفن وحتى نهاية الحداثة. إذ بدخول البشرية إلى مرحلة ما بعد الحداثة، قد تغير هذا الأمر على المستوى الفني بصورة ملحوظة، فقد أصبحت الفنون بكل أنماطها تعاني من أزمة حقيقية، سواء على مستوى الشكل أو على مستوى المضمون، لدرجة دفعت الكثيرين إلى توجيه الاتهام للفن، بأنه وسيلة أساسية ليس لتنمية المجتمعات، وإنما لانحطاطها وتدهورها، ولعل هذا ما انتبه إليه أفلاطون منذ القدم، عندما هاجم الفنون الموجودة في عصره، لأنها من وجهة نظره، تبتعد كل البعد عن أي هدف تنموي، يأخذ بيد المجتمع إلى الأمام، إذ تشكل عامل هدم نظرًا لابتعاد مضامينها عن تجسيد الفضيلة، تلك الأخيرة التي اعتبرها أفلاطون شرطًا أساسيًا لاستمرار واستقرار المدينة الفاضلة، ودليلًا واضحًا على انشغال الفنان بقضايا مجتمعه .

غير أن قضية علاقة الفن بالتنمية لم تقف عند هذا الحد، وإنما تطورت بشكل مغاير تمامًا لوجهة نظر أفلاطون، حيث ظهر اتجاه عزل الفنان عن المجتمع ومشاكله، وضحى تمامًا بالبعد الأخلاقي، وفصل الفن عن الحياة فصلًا جذريًا، ورفض أنصاره أن يكون للفن أي دور في تنمية المجتمع، بحجة الحفاظ على قدسيته؛ وهو اتجاه الفن للفن.

ونطمح من وراء هذا البحث، إلى تسليط الضوء على الفن بوصفه إبداعًا ثقافيًا، يسهم في تطوير وعي المتلقي ورفع مستواه، كي يكون له دورًا فاعلًا ومؤثرًا في التنمية المستدامة، كما نسعى أيضًا إلى معرفة كيفية استثمار الفن في تحقيق التنمية المستدامة، خاصة وأن الفن في كل أشكاله، لا يكون لأجل الفن فحسب، وإنما للفن أهدافًا تنموية نبيلة لابد من رعايتها وإرساء دعائمها.

وتتلخص الأسئلة المحورية لهذا البحث فيما يلي:

هل يحرص الفنان فعلًا على أن يكون له دورًا في التنمية، أم أن الفنون قد أصبحت مصدرًا فعالًا لهدم أي تنمية وزوالها؟

وهل بإمكان الفن أن يتحلل تمامًا من أي دور في تنمية المجتمع، كما يزعم أنصار اتجاه الفن للفن؟

وإذا كان للفن دورًا في التنمية، فكيف يكون هذا الدور مؤثرًا وفعالًا؟ هل هذا التأثير ينبع من قدرته على التجميل، أم ينبع من قدرته على المواجهة؟ وهل المواجهة تعنى نقل الواقع كما هو بزيفه ونقصه؟ أم أن للمواجهة أبعادًا أخرى لابد من مراعاتها؟

الكلمات المفتاحية: التنمية المستدامة–الثقافة –البعد الأخلاقي– البعد النفعي – الفن لأجل الفن.

Abstract

Art occupied a place and position in the development, in all ages and historical stages. This is Because if development focuses, on the human element, as the basis for any fruitful Renaissance project, to building him spiritually and raise its efficiency and this cannot be achieved, only through Arts and Letters, which can contribute to building a Conscious Citizen With a degree of culture and taste, Which will certainly have a noticeable impact on sustainable development, which is not complete without educating the mind and refining the character.

It seems to me that this is the role that a large percentage of the Arts have been keen to play since the inception of Art until the end of modernism, as humanity entered to the post-modernism, this matter on artistic level has changed significantly, that the Arts, in all their forms, are suffering from a major crisis that has led many to accuse Art of being a main source of the decline and deterioration of Societies,

This is what Plato noticed when he attacked the Arts of his time, because, from his point of view it is far from any development goal that pushes forward, because its contents are far from the embodiment of virtue, which Plato considered a prerequisite for the participation of Art in development.

But the relationship of Art and development did not stop at this point, its development in a different way with the Attitude of Art for Art Sake this attitude isolated the Arts and the Artist from Society and its problems, and his supporters refused to have any role for Art in development under the pretext of preserving its sanctity

We aspire from this research to shed light on Art as a cultural innovation that raises the awareness of the individual to have an effective role in sustainable development

The central questions of this research are:

Does art have a role in development, or has the Arts turned into obstacle to development?

Is it possible for Art to degrade from any role, as the Art for Art's sake claims?

Does the role of Art stem from its ability to beautify reality, or from its ability to represent reality?

Key Words: Sustainable Development-Culture-The ethical dimension-Art for Art's Sake

مقدمة:

تشكل العلاقة بين الفن وتنمية المجتمعات، قضية من القضايا بالغة الأهمية في مجال الفلسفة بوجه عام، وفي مجال فلسفة الفن بوجه خاص، هذا فضلًا عن أنها من الموضوعات المهمة جدًا، والمطروحة على الساحة الفكرية في الآونة الأخيرة، خاصة في ظل الأزمات التي تشهدها المجتمعات العربية، بل ويشهدها العالم بأسره، والتي جعلتنا نعاني انتكاسات عديدة على مستويات متنوعة اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا، ويبدو لي أن السبب الجوهري وراء كل هذه الانتكاسات، يعود إلى أزمة الثقافة، ومسألة وعي الذات الإنسانية بكل ما يدور حولها، وهو وعي يدفع الإنسان دائمًا إلى التساؤل عن معنى وجوده، وسبل تحقيق هذا الوجود، كما يدفعه أيضًا إلى البحث عن العوامل التي قد تساعده، أو التي تعوقه أحيانًا، بل وتقف حائلًا بينه وبين تحقيق هذا الهدف !

ويتراءى لي أن من أكثر الأشياء التي قد تساعد الإنسان على تحقيق أهدافه، أو تعوقه أحيانًا أخرى عن تحقيقها، يأتي الفن بما له من تأثير قوى في حياة الإنسان، إذ يرتبط بالوعى الإنساني ارتباًا مباشراً، ويؤثر فيه تأثيرًا ملحوظًا، فالفن ينمي لدى الفرد ملكة الفهم والإدراك ،التي تدفعه بصورة أو بأخرى إلى التغيير من خلال مخاطبة عقله، ودفعه إلى اتخاذ مواقف وقرارات تعبر عنه أدق تعبير، ولهذا يمثل الفن إفرازًا من أهم إفرازات الثقافة المجتمعية، التي تلعب دورًا مهمًا في تغيير المجتمعات عن طريق التأثير في المتلقي .

غير أن هذا التأثير قد يكون سلبيًا أو إيجابيًا، أي قد يكون دافعًا للتنمية أو عائقًا أمامها؛ وهذا يتوقف على ما يعرضه الفن من أخلاقيات، تتجسد في الأعمال الفنية التي تُعرض على الذوق العام، وقد لاحظنا أنه عندما يرتبط الفن بالأخلاق الإيجابية، يصبح أكثر تعبيرًا وتأثيرًا في مجال التنمية إذا ما قورن بأي شيء آخر، وذلك لأن الفنون وسيلة فعالة لتثقيف العقل وتهذيب النفس، ومن ثم الاسهام في خلق مواطن واع، يكون بكل تأكيد له تأثيره الملحوظ في التنمية المستدامة، التي لا تكتمل إلا بتثقيف العقل وتهذيب الخلق .ويبدو لي: أن هذا هو الدور الذى حرصت نسبة كبيرة من الفنون على القيام به منذ نشأة الفن، وحتى نهاية الحداثة .

إذ بدخول البشرية إلى مرحلة ما بعد الحداثة، قد تغير هذا الأمر على المستوى الفني بصورة ملحوظة، فقد أصبحت الفنون بكل أنماطها تعاني من أزمة حقيقية، سواء على مستوى الشكل أو على مستوى المضمون، لدرجة دفعت الكثيرين إلى توجيه الاتهام للفن، بأنه وسيلة أساسية ليس لتنمية المجتمعات، وإنما لانحطاطها وتدهورها، ويبدو لي أن هذا ما انتبه إليه أفلاطون منذ القدم، عندما هاجم الفنون الموجودة في عصره، لأنها من وجهة نظره تبتعد كل

البعد عن أي هدف تنموي، يأخذ بيد المجتمع إلى الأمام، إذ تشكل عامل هدم نظراً لابتعاد مضامينها عن تجسيد الفضيلة، تلك الأخيرة التي اعتبرها أفلاطون شرطًا أساسيًا لاستمرار واستقرار المدينة الفاضلة، ودليلًا واضحًا على انشغال الفنان بقضايا مجتمعه .

غير أن قضية علاقة الفن بالتنمية لم تقف عند هذا الحد، وإنما تطورت بشكل مغاير تماماً لوجهة نظر أفلاطون، حيث ظهر اتجاه عزل الفنان عن المجتمع ومشاكله، وضحى تمامًا بالبعد الأخلاقي، وفصل الفن عن الحياة فصلً جذريًا، ورفض أنصاره أن يكون للفن أي دور في تنمية المجتمع، بحجة الحفاظ على قدسيته؛ وهو اتجاه الفن للفن.

ونطمح من وراء هذا البحث إلى تسليط الضوء على الفن بوصفه إبداعًا ثقافيًا، يسهم في تطوير وعي المتلقي ورفع مستواه، كي يكون له دورًا فاعلًا ومؤثرًا في التنمية المستدامة، كما نسعى أيضًا إلى معرفة كيفية استثمار الفن في تحقيق التنمية المستدامة، خاصة وأن الفن في كل أشكاله، لا يكون لأجل الفن فحسب، وإنما للفن أهدافًا تنموية نبيلة لابد من رعايتها وإرساء دعائمها.

وتتلخص الأسئلة المحورية لهذا البحث فيما يلي:

هل يحرص الفنان فعلًا على أن يكون له دورًا في التنمية من خلال أعماله الفنية، أم أن الفنون قد أصبحت مصدرًا فعالًا لهدم أي تنمية وزوالها، خاصة في ظل وجود بعض الاتجاهات الفنية المتطرفة، التي حولت الفن إلى قوة مدمرة للمجتمع، بدلًا من أن تسخره للقضاء على السلبيات الموجودة داخل المجتمع؟

وهل حقًا بإمكان الفن أن يتحلل تمامًا من أي دور في تنمية المجتمع، كما يزعم أنصار اتجاه الفن للفن؟

وإذا كان للفن دورًا في التنمية، فكيف يكون هذا الدور مؤثرًا وفعالًا؟ وهل هذا التأثير ينبع من قدرته على التجميل أي محاولة إخفاء العيوب والتعبير عن الواقع في صورة مثالية أم ينبع من قدرته على المواجهة؟ وهل المواجهة تعني نقل الواقع كما هو بزيفه ونقصه؟ أم أن للمواجهة أبعادًا أخرى لابد من مراعاتها؟

هذه التساؤلات وغيرها هو ما دفعنا إلى تناول مثل هذا الموضوع بكثير من التأمل، خاصة وأن العلاقة بين الفن والتنمية لا تزال غامضة؛ وهو ما نسعى إلى توضيحه من خلال عدد من النقاط المحورية وهي:

أولًا– معنى التنمية وعلاقتها بالثقافة.

ثانيًا– طبيعة العلاقة بين الفن والتنمية.

ثالثًا– الفن وتنمية المجتمع عند أفلاطون.

رابعًا– الفن وتنمية المجتمع عند أصحاب اتجاه الفن للفن.

خامسًا التعقيب– كيف نصل لتنمية فعلية للمجتمعات؟

أولًا: معنى التنمية وعلاقتها بالثقافة

لما كان موضوع بحثنا هو الفن والتنمية المستدامة، فإن أولى خطوات بحثنا تنطلق من تحديد مفهوم التنمية، والتنمية في اللغة العربية مشتقة من الفعل نما، أي زاد الشيء وكثر [1]؛ وهي بهذا المعنى تعني الزيادة والتحسن، والتوسع والتطور والرقي، والتغير في الوضع القائم، من خلال تنمية الموارد المتاحة والاستغلال الأمثل لها، ولهذا تشكل التنمية حلًا سحريًا لقضايا ومشكلات المجتمعات الإنسانية.

وتنمية الموارد هنا لا تقتصر على الموارد الاقتصادية فحسب، وإنما تعتمد أيضًا؛ وهذا هو الأهم على تنمية الموارد البشرية، وهو أمر لا يتحقق بنجاح، إلا بانتباه المسئولين عن التنمية إلى أن الثقافة بكل إفرازاتها؛ هي الشريان الرئيسي الذي يضخ الحياة في كل أرجاء المجتمع .وذلك لأن التنمية الحقيقية لا تقاس بزيادة الإنتاج فحسب، وإنما تقاس أيضًا بما تحمله للإنسان من تحسن في طريقة حياته؛ وهو ما يؤكد بصورة أو بأخرى على أن التنمية المستدامة، هي جملة من التغيرات والتحولات المتكاملة فيما بينها فكريًا واقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا وأخلاقيًا، ولا يمكن أن تختزل بأي حال من الأحوال في العامل الاقتصادي وحده، والدليل على صحة ما نقول: أن من يتأمل في مفهوم التنمية وأهدافها وتوجهاتها، منذ أول استخدام لها في أواخر أربعينات القرن العشرين وحتى يومنا هذا، سيجد أن التنمية في البداية كانت ترتبط فعلًا بالعامل الاقتصادي، فكانت تشير إلى زيادة متوسط دخل الفرد، وكان الاقتصاد في هذه المرحلة هو المحور الأساسي الذي تدور حوله معظم محاور التنمية الأخرى، بينما كان التخلف يُرد إلى الفقر المادي، الذي ينحصر في بعض الأسباب الاقتصادية كمشاكل الأمية والجهل .

ولكن بمرور الوقت، ومن خلال القراءة الجادة للتجارب التنموية في المجتمعات المتقدمة، ثبت بالفعل أن حصر مسألة التنمية برمتها في الجانب الاقتصادي، الذي يُعبر عنه

[1] – المعجم الوجيز ،ص636.

بزيادة متوسط الدخل للفرد يعد معيارًا مضللًا، وآية ذلك أن الدول التي ينعم فيها الفرد بمتوسط دخل مرتفع "كدول الخليج مثلاً"، لا تزال محسوبة ضمن الدول النامية، مما يشير إلى أن التنمية مفهوم أعم و أشمل من أن يختزل في الجانب الاقتصادي أو المادي فحسب، إذ هناك ما هو أخطر وأهم من هذا المستوى؛ وهو المستوى الثقافي، الذي يعد في تقديري الأساس لكل أنواع التنمية، وذلك لأنه إذا كانت التنمية الحقة؛ هي من تضع الإنسان في بؤرة اهتمامها، فإن الثقافة بكل إفرازاتها بإمكانها أن تقوم بهذا الدور على أكمل وجه، إذ يركز الإنتاج الثقافي في المقام الأول على العنصر البشرى ، بوصفه الركن الركين في أي مشروع نهضوي متميز، بهدف بنائه بناءًا معنويًا، ورفع كفاءته باعتباره القائد الأول لعملية التنمية ،والفاعل الرئيسي فيها، ولعل هذا ما عبر عنه فيكو(1668-1744): عندما وصف الثقافة بأنها روح المجتمع التي تنفخ فيه الحياة[1]، وذلك لأن للثقافة مفهومًا واسعًا وشاملًا، يمتد ليشمل كافة شؤون الحياة، كالسمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية، التي تميز مجتمعًا بعينه أو فئة بعينها؛ وهى تعنى الإحاطة بكل أمور الحياة، ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات، والفنون والآداب والعلوم والفلسفة والسياسة، فكل هذه الأنماط الفكرية؛ هي أجزاء من الثقافة الإنسانية، وصلتها بالتنمية وبالحضارة صلة باطنة وقوية .

ويبدو لي أن هذا هو ما دفع القائمين على التنمية في الآونة الأخيرة إلى الاهتمام الملحوظ بالبعد الثقافي للتنمية، والاعتراف بأهميته كمحرك رئيسي في السياسات الإنمائية، بل واعتباره محورًا أساسيًا لعلاج معظم حالات التعثر التنموي، إذ يشكل انخفاض مستوى الوعي الثقافي في أي مجتمع من المجتمعات، عقبة من أهم وأخطر العقبات التي تعترض سبيل التنمية المستدامة.

ولكن ما أود التأكيد عليه هنا: هو أن هذا النوع من التنمية لا يمكن بلوغه إلا بفهم صحيح للعلاقة بين الثقافة والتنمية، ويتلخص هذا الفهم الصحيح في التركيز على التنمية بمفهومها العام والشامل، الذي لا يقتصر اطلاقًا على النمو الاقتصادي، وإنما يركز على عملية التغيير الواعية والشاملة لكل الأبعاد سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو ثقافية، والتي تهدف بشكل جوهري إلى رفع مستوى الوعى لدى الفرد، حتى يشعر بقيمته داخل المجتمع ،ولا يمكن أن يتحقق هذا الأمر، إلا بتعاون جميع مؤسسات المجتمع، وعلى رأسها المؤسسة الثقافية .

ثانيًا: طبيعة العلاقة بين الفن والتنمية

[1] –ديفيد انغليز وجون هغسون:سوسيولوجيا الفن ،ترجمة ليلى الموسوى ومراجعة محمد الجوهرى،عالم المعرفة ،المجلس الوطنى للفنون والثقافة والفنون والاداب الكويت ،2007 ،ص44

تعد العلاقة بين الفن والتنمية علاقة وثيقة للغاية ، وذلك لأنه إذا كانت المؤسسة الثقافية تلعب الدور الرئيسي في تنمية المجتمعات، فإن هذا يتضمن بداخله الاعتراف بالدور الخطير، الذى يلعبه الفن بوصفه أهم أعمدة هذه المؤسسة، ويبدو لي: أن هذا هو ما انتبه إليه فيكو: عندما ذهب إلى أنه إذا كانت الثقافة هي روح المجتمع التي تنفخ فيه الحياة، فإن فن المجتمع هو الأشد تعبيرًا عن هذه الروح [1]،فالفن بالنسبة لفيكو يشكل أهم المنجزات الثقافية التي تنبع من المجتمع، وتتأثر به وتشارك في تغييره؛ ومن ثم فهو أكثر إفرازات الثقافة دفعًا لعجلة التنمية إلى الأمام .وذلك لأنه إذا كانت أولى أهداف التنمية، أن يصبح الإنسان أفضل؛ فإنه لن يصبح كذلك إلا من خلال المضامين الفنية الجادة التي تتيح له التعرف على ذاته، وإدراك إمكاناته؛ ومن ثم إدراك العالم والسيطرة عليه.

غير أن العلاقة بين الفن والتنمية لا يمكن أن تصنف بأنها علاقة وثيقة فحسب، وإنما هي علاقة قديمة أيضًا ترجع بجذورها إلى الإنسان الأول، هذا الإنسان الذي وظف الفن منذ البداية لتحسين أحواله، والمطلّع على الأصل التاريخي للفن، يمكنه أن يلاحظ بكل سهولة، أن الفن قد مثل بالنسبة للإنسان الأول وسيلة مهمة "لتغيير أحوال العالم الخارجي بالأفعال، فعن طريقها سخر الإنسان قوى الطبيعة، كي تعمل لصالحة"[2]. ولعل هذا ما عبر عنه سيدنى فنكلشتين: عندما صرح بأن للفن البدائي شكلين: شكل خاص بالنفع، وشكل آخر خاص بالطقوس القائمة على العقائد السحرية، وقد ظهر هذا الشكل في العصر الحجري القديم كمحاولة للسيطرة على قوى الطبيعة؛ وهي محاولة ارتكزت بشكل جوهري على الاعتقاد بأن محاكاة هذه القوى، إنما يمنح الإنسان قوة التغلب عليها[3]، وليس هذا فحسب، بل إن أرنست فيشر يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فيرى: أن الفن لم يكن مجرد أداة سحرية، ساعدت الإنسان في اخضاع الطبيعة فحسب، وإنما لعب أيضاً دورًا مهمًا في تنمية العلاقات الاجتماعية[4] .

ويبدو لي: أن الفن بالنسبة للإنسان الأول لم يكن مجرد وسيلة لتغيير أحوال العالم الخارجي بالأفعال فحسب، وإنما مثل أيضًا وسيلة مهمة لتغيير عالمه الداخلي بالانفعال، ولعل هذا ما نلمسه بوضوح في الصور والرسومات التي تركها الإنسان الأول على جدران الكهوف،

[1] –ديفيد انغليز وجون هغسون:سوسيولوجيا الفن ،ص44

[2] – احمد فؤاد الأهوانى :جون ديوى، دار المعارف ،سلسلة نوابغ الفكر الغربى ،1959، ص213

[3] سيدنى فنكلشتين:الواقعية في الفن،ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد،مراجعة يحيى هويدى،الهيئة العامة للكتاب،القاهرة،1972،ص20

[4] ارنست فيشر:ضرورة الفن،ترجمة اسعد حليم،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1998،ص52

والتي يمكن تفسيرها بأنها كانت وسيلة للتكيف مع البيئة من حوله، عبر من خلالها عن مخاوفه وآلامه من تقلبات الطبيعة المحيطة به، كما عبر من خلالها أيضًا: عن اعتقاده بأن الصورة بإمكانها أن تختصر الهوة التي تفصل بينه وبين الطبيعة، واختصار الهوة يتحقق هنا برسم صور الحيوان الذى يخاف منه، أو لا يستطيع السيطرة عليه، وهذا نابع من اعتقاده الراسخ، بأنه من الممكن ضمان وقوع الحدث الفعلي عن طريق التمثيل الرمزي له؛ وبهذه الطريقة قدم الفن في تلك المرحلة إشباعًا على المستويين المادي والمعنوي، وأثبت لنا بصورة أو بأخرى أن له دور تنموي يمارسه منذ القدم .

وإذا ما تركنا العصر الحجري القديم، لندخل إلى العصر الحجري الجديد؛ وهو العصر الذى عرف فيه الإنسان فكرة المجتمع، وبدأ في بناء الحضارة، نجد أنه من السهل علينا أن نحدد ملامح الدور الخطير، الذى لعبه الفن في بناء المجتمعات وتشكيلها ، وفى هذا الاطار يمكن القول: بأن الفن منذ أن عرفه الإنسان ، يمكن النظر إليه بوصفه رافداً من أهم روافد الإصلاح والتنمية في المجتمع، حيث كانت وظيفته الأساسية؛ هي العمل على تنمية وعي الإنسان، وتحسين النظام الاجتماعي[(1)] ، وذلك من خلال المشاركة الفعالة في مظاهر التنمية والتغير الاجتماعي، ولتوضيح ذلك نرى: أنه إذا كانت حياة الإنسان في الحضارات القديمة قد ارتبطت بالعمل والنشاط الاقتصادي، فإن هذا العمل قد ارتبط بشكل أو بآخر بممارسته للفن، فهناك تداخل ملحوظ بين الفن والعمل منذ البداية؛ وبهذا التداخل أدى الفن دورًا ملحوظًا في التنمية الاقتصادية؛ وهناك رأى يقول: بأن فن الإنسان الأول قد نشأ من خلال النشاط الاقتصادي، ولعل هذا ما عبر عنه أروين أدمان بقوله: إن الأمثلة الرئيسية للفن يمكن العثور عليها، لا في قاعة الموسيقى أو المتحف، وإنما في الحقل والمرعى والمحراث[(2)]، وذلك لأن الفن قد ارتبط منذ البداية بظروف العمل الجماعي، وتاريخ الفن يحدثنا عن أغاني جماعية، كان يرددها العمال والفلاحين والصيادين أثناء مزاولتهم لأعمالهم، وهذا لاقتناعهم العميق بأن هذه الأغاني تيسر العمل، وتخفف من وطأته وتسرع بالزمن[3]. فعلاقة الفن بالتنمية الاقتصادية علاقة وثيقة منذ القدم، والدور الذي يؤديه في هذا المجال دور ملحوظ وله خطورته.

وفى ظل الظروف الحالية، تتعاظم أهمية الفنون في مجال التنمية بوجه عام؛ وذلك لأن دورها لم يعد ينحصر في بناء الحضارات فحسب، وإنما توجهت نحو ما هو أخطر من

---

[1] – Plekhanov. G.v: Art and social life, tr .by Fineberg.A, progress publishes press, 2nd, 1957 p:3

[2] اروين ادمان:الفنون والانسان ،ترجمة مصطفى حبيب،تقديم ماهر شفيق،الهيئة المصرية العامة للكتاب،2001،ص46

[3] راوية عباس: فلسفة الفن وتاريخ الوعي الجمالي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،1996، ص440

ذلك؛ وهو بناء الإنسان المثقف الذى يبنى هذه الحضارات، فالإنسان كما نعلم وخاصة المثقف منه؛ هو مصدر التنمية وصمام الأمان لها، أنه المفتاح السحري للتقدم الفعلي، والمحرك الأول لانتقال المجتمعات من التخلف إلى التنمية، ولهذا يتوجه الاهتمام دائمًا إلى تنمية ملكاته وقدراته وتطوير مستوى أدائه، حتى يصبح أكثر كفاءة وأقدر على تحقيق تطلعات المجتمع إلى النهضة والتقدم، وكل هذا لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الفنون؛ فهى أكثر المجالات قدرة على أداء هذا الدور ببراعة، إذ تضع الإنسان في مركز اهتمامها، وتحرص على تشكيل وعيه ومنحه قدرًا من الثقافة والذوق، يمكّنه من فهم المجتمع ومن ثم المساهمة في تغييره .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: أن تدهور الفن يعنى تدهور كل المجالات الأخرى، وأنه إذا أردنا أن نحقق تنمية فعلية لأى مجتمع، يجب أن نرفع مستوى الفن، لكى يعمل بدوره على رفع مستوى الوعي لدى الفرد، بصورة تكفل له القدرة على المشاركة الإيجابية في التنمية، وفى هذا الإطار أرى أنه: من الضروري أن تتعاون جميع الفنون من سينما، ومسرح وموسيقى وغناء وفن تشكيلي، من أجل إبداع أعمال جادة تسعى إلى تحسين الذوق العام، ويكون هدفها الأساسي؛ هو بناء إنسان على قدر كبير من الثقافة والصحة النفسية ، إنسان يعرف كيف يفكر ويبدع ويخطط، وينمى قدراته وخبراته، ويعالج مشاكله بشكل لائق، ويقدر على تخطى أزماته بخيرها وشرها، من خلال اطلاعه على أعمال فنية جادة تقدم له الخبرة والنصيحة، وتمنحه رؤية واضحة وصادقة لملامح المجتمع بمحاسنه ومساوئه، أعمال تسهم بالفعل في النهضة الشاملة للمجتمع، وتدفع عجلة التنمية إلى الأمام، وبذلك يمارس الفن دوره كأداة تثقيف وبناء، لا كأداة لهو وإفساد .

غير أننا نلاحظ أنه بينما تسعى وجهة النظر السابقة إلى توضيح الدور الفاعل والحيوي الذي يؤديه الفن في مجال التنمية منذ القدم، والتأكيد على أن سبيل التنمية أو النهوض، لن يكون ممكن إلا بوضع سياسات ثقافية ركيزتها الأساسية الفنون، التي تعبر عن أحوال المجتمع بمحاسنه ومساوئه، نجد على الجانب الآخر: هناك وجهة نظر مخالفة لهذا الرأي، تنظر إلى الفن بوصفه عقبة كبيرة أمام برامج التنمية، وخاصة عندما يبتعد عن الحياة، والحياة من وجهة النظر هذه لها ركيزتان أساسيتان: هما المنفعة والأخلاق، ولعل هذا ما عبر عنه أفلاطون الذى سيظل أبرز من هاجم الفن والفنانين، وحرمهم من المشاركة في التنمية عندما اعتبر عدم تحقيق الفن للمنفعة، وعدم التزامه بالأخلاق الإيجابية ،نقصًا كبيرًا يحول بينه وبين المشاركة في نهضة المجتمع؛ وهو ما سنناقشه في السطور التالية .

ثالثًا: الفن وتنمية المجتمع عند أفلاطون

لا جدال في أن أساس العلاقة بين الفن والتنمية، قد نتج بشكل أساسي عن الربط بين الفن والمنفعة، ارتكازًا على القول: بأن رؤيتنا للأشياء تتوقف على معرفتنا بفائدة أو منفعة هذه الأشياء، فإذا لم يكن الشيء مفيداً، فإنه لن يحظى باهتمامنا، هذا ما عبر عنه أفلاطون عندما ذهب إلى أن الفنون عبث لا فائدة من ورائها على المستوى المادي؛ فهي في نظره لا تمتلك أي دور تنموي؛ وإنما هي مجرد كماليات تستمر الحياة بها أو بدونها، وقد لاحظ أن الواقع يؤيده في ذلك، فأغلب فنون عصره تبعد كل البعد عن أي هدف تنموي، يأخذ بيد المجتمع إلى الأمام، وأنها أي الفنون إذا ما قورنت بالاقتصاد أو السياسة ، يتضح أنها لا قيمة لها، وذلك لأن أهم شيء من وجهة نظره؛ هو تنمية المجتمع اقتصاديًا وسياسيًا فحسب .

وقد صرح بهذا الأمر في الكتاب العاشر من الجمهورية، حين تساءل باستنكار وسخرية عن قيمة هوميروس، لينتهي به الحال في النهاية إلى وصف هوميروس بالجهل بالحقائق، وعدم الأهمية إذا ما قورن بغيره في أي مجال آخر، وقد عبر عن ذلك بقوله: لنسأل أى عمل جليل قام به هوميروس شاعر المأساة وقائدها، هل منح الصحة للجنس البشرى، وترك وراءه مدرسة طب كاسكليبيوس؟ أو هل وضع أي قانون يخدم الحرب الإستراتيجية وإدارة الدول كليغاركس؟ أو هل كان مشرعاً كصولون؟ أو هل أدخل تحسينات على الفنون كطاليس وغيره؟ وهل كان هو مرشدًا أو معلمًا، وله طريقة خاصة كالفيثاغورية؟ باختصار أنه لا يعرف شيئاً عن الوجود الحقيقي أنه مقلد [1].

والمتأمل في هذه الفقرة بما تنطوي عليه من أفكار نظرية، يمكنه أن يجزم بأن أفلاطون فيما يخص الفنون كان يناقض نفسه، فهذا الفيلسوف المثالي إلى أقصى درجة كانت نظرته للفنون، لا تختلف كثيرًا عن نظرة أصحاب النزعة المادية؛ وذلك لأنه قد جعل من الفن مجرد تابع للأنظمة الاجتماعية والاقتصادية، وكان ينظر إلى الفن كما ينظر إلى أدوات الحياة المختلفة، ويقيس نفعه قياسًا عمليًا مباشرًا، وينظر إليه على أنه عبث لا طائل من ورائه، وحجته في ذلك أن الأعمال الفنية مهما كانت عظمتها، لن تؤدى في إبداعها إلى ثورة في الصناعة أو السياسة، ولا هي عند الاستمتاع بها ستؤثر على أي نحو مباشر أو محسوس في المجتمع. وذلك لأن التنمية من وجهة نظره قد انحصرت في الاقتصاد أي في المنفعة المادية فحسب.

[1]– أفلاطون :محاورة الجمهورية ،نقله للعربية شوقى داود تمراز ،الكتاب العاشر ص442

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه الآن، هو إذا كانت التنمية من وجهة النظر هذه، تتلخص في الاقتصاد والمنفعة، فهل حقاً ليس للفن أي دور في التنمية، إذا ما قورن بالاقتصاد كما يزعم أفلاطون، وهل يعجز الفن عن أداء أي دور في التنمية، لأنه لا يحقق منفعة مادية؟ الإجابة عن هذا السؤال تكون بالنفي؛ إذ أن ربط التنمية بالعامل الاقتصادي وحده يعد مضللًا؛ فالتنمية في فلسفتها العامة لا تعدو أن تكون قضية ثقافية، وذلك لأن أي نوع آخر من أنواع التنمية، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية محكوم عليها بالفشل، إذا لم ترافقها سياسات ثقافية، ترتكز إلى الفنون التي ترتقي بوعي المتلقي، وتجعله يسمو على كل ما يفيض به الواقع من عبثية واسفاف، وبذلك تشارك الفنون مشاركة إيجابية في مجال التنمية، ولا تقل هذه المشاركة بأي حال من الأحوال عن مشاركة باقي المجالات الأخرى.

فكما ترتبط التنمية بالعلم، فإنها ترتبط أيضاً بالفن، وآية ذلك أنه إذا كان العلم يكشف لنا الحقائق الكونية، وينبهنا إلى أخطار الكوارث الطبيعية مثلاً قبل وقوعها، فإن الفن أيضاً يستطيع أن يكشف لنا حقيقة، قد يعجز العلم عن سبر أغوارها؛ وهي حقيقة الذات الإنسانية، إذ ينبهنا إلى أخطار الشر وحقيقته، قبل الوقوع فيه، وخاصة فنون الشعر والأدب؛ فهي أكثر الفنون قدرة على أداء هذا الدور ببراعة.

ومن هذا المنطلق يحق لنا أن نصف: رأى أفلاطون ومن تبعه من النفعيين، أو الماديين فيما يخص فائدة الفن، بأنه رأى بعيد إلى حد كبير عن الصواب، إذ يتساوى السؤال عن فائدة الفنون، بالسؤال عن فائدة الحياة نفسها. فإذا كان السؤال عن فائدة الحياة؛ سؤال فارغ من المعنى، فكذلك السؤال عن فائدة الفنون.

لقد غاب عن أفلاطون وأتباعه أن المقارنة في مجال التنمية، ليست مقارنة بين اختراع ينفع في الحياة بكل أشكالها، وفن لا ينفع إلا للزينة، فالمقارنة هنا غير دقيقة، وذلك لأن كلاهما ضروري في حياة الإنسان، قد يعلو إحداهما على الآخر أحيانًا، ولكن الثابت أنه لا يمكن أن تكتمل الحياة بدونهما، وذلك لأننا إذا أبقينا على العلم؛ لأن اختراعاته تنفع في كل زمان ومكان، وتخلينا عن الفن لأنه مجرد زينة للحياة، فإننا بذلك نتخلى عن عنصر أساسي لا تكتمل الحياة بدونه.

هذا فضلاً عن أن قيمة الفن بالنسبة لنا، لا تتحدد بمقدار الحاجة إليه أو الاستغناء عنه، وإنما تتحدد قيمته كما يقول العقاد: بمقدار ما سنكون عليه إذا ظفرنا به. فإذا أصبح كل ما يشغلنا هو الحصول على الأشياء المادية، فأقصى ما نبلغه في تحصيلها؛ هو أن نتساوى

مع سائر الكائنات في إشباع الجانب البيولوجي فقط، أما إذا أصبح ما يشغلنا هو تحصيل الفنون، لأنها بالنسبة لنا لم تعد مجرد كماليات، بل هي من ألزم الضروريات، فإننا بكل تأكيد سنكون أفضل حالًا[1]، وذلك لأن الفنون هي الوسيلة الحقيقية لبلوغ الكمال الحقيقي، إذ تمنحنا التوازن بين قدراتنا العقلية والروحية، وتتفوق على التقدم العلمي والتكنولوجي الذى نجح في أن يمنحنا تقدمًا ورفاهية، ولكنه قد عجز عن أن يمنحنا السعادة الحقيقية .

ولعل هذا ما انتبه إليه أرسطو(384ق.م-322ق.م)منذ القدم، فقد كان من أسبق الفلاسفة إلى معالجة هذا الأمر؛ إذ نجح في أن يكفل للفن مكانة في التنمية تفوق مكانة الضروريات، وهو ما تجلى بوضوح في نظريته في التطهير، والتي أكد فيها على أن أهمية الفنون تفوق الضروريات، لأنها تحقق للإنسان ما تعجز الضروريات عن تحقيقه، وهو التوازن الداخلي للنفس، فالفنون المختلفة وخاصة التراجيديا، تمنحنا تطهيرًا للانفعالات يحقق لنا توازنًا نفسيًا واتساقًا داخليًا، حتى لو جسدت لنا سلوكًا سلبيًا، وذلك لأن التراجيديا تمتلك صبغة تطهيرية، تجعل منها أداة فعالة لتصفية النفس من الانفعالات الضارة، وإزاحة ما تعانيه من قلق .

وفى الفكر المعاصر ذهب جويو إلى المعنى نفسه عندما أضاف إكمالاً لنظرية التطهير الأرسطية، أكد فيه على أن للفن أهمية كبيرة في التطور الإنساني، واعتبر زواله إيذانًا بانتهاء هذا التطور[2] ، وقد زاد المعنى توضيحاً حين قال: إذا لم يكن الفن يفيد الحياة فائدة مباشرة، فإنه يساعدها على كمال النمو وتمام التفتح، أنه ترويض للجملة العصبية وتمرين للفكر، وما لم نروض أعضاءنا ترويضًا معقدًا، فقد نصاب بامتلاء عصبي يعقبه انكماش وضمور، ولهذا تتساوى أهمية الفن في حياة الانسان بأهمية الضروريات، بل وتفوقها أحيانًا، إذ يضيف الفن إلى الحياة الواقعية حياة خيالية، تنفق الفائض من عواطفنا المضطربة، وتعوض عن عواطفنا العاطلة ،بشكل يصبح معه ضرورة لازمة لجميع الناس، كالخبز اليومي سواء بسواء[3] .

المعنى نفسه عبر عنه أروين أدمان، حين أكد: من جانبه على أن الأعمال الفنية، تتمتع بسحر لا ريب فيه، وهي لا تطعم فمًا، ولكنها تغذى عين الروح، إذ تدفع الحواس للحركة والخيال للمتعة والعقل للبهجة؛ وهي وإن كانت ذات نفع أو فائدة، فنفعها في سحرها وفي

---

[1] العقاد:الأدب والنقد،المجموعة الكاملة ،المجلد السادس والعشرون،دار الكتاب اللبنانى،بيروت،1984، الطبعة الاولى ،ص545-546-وانظر ايضاً مقالة للعقاد بعنوان بل ضرورية جدًا،مجلة الرسالة للآداب والعلوم والفنون،العدد 203، 1937،القاهرة

[2] -جويو: مسائل فلسفة الفن المعاصرة ، ترجمة سامى الدروبى ،دار الفكر العربى، ص24

[3] -جويو :المرجع السابق، ص25

فتنتها الخالصة؛ وهذه القيمة التي لها لا يجب حسابها على أساس المنافع التي تغلها، وإنما على أساس ما تتيحه من رضا حسي وتخيلي مباشر، ومن حيث كونها ألوانً وأشكالًا وأصواتًا وإيحاءات [1].

وهكذا نستطيع القول في ضوء ما سبق، أن للفنون الجميلة قيمة عملية، لا تقل أهمية عن قيمة بعض الوسائل النفعية، ونحن هنا لا نتحدث عن الفوائد المادية، أو الضرورات الحيوية التي أفقرت روح الإنسان، وبددت مثله العليا، بل نحن نتحدث عن المنفعة بمعناها الواسع، أو الفائدة العملية بمدلولها العام، تلك المنفعة المعنوية التي تسهم إسهامًا عميقًا في تنمية المجتمع، ولكن بصورة غير مباشرة.

وإذا ما انتقلنا بالقضية التي بين أيدينا إلى مستوى آخر، محاولين تتبع الموقف الأفلاطوني من قضية علاقة الفن بالتنمية، نلاحظ أن أفلاطون لم يقف عند حد القول: بأن الفنون البعيدة عن المنفعة لا تمتلك أي دور تنموي فحسب، بل نجده يؤكد هذا الأمر بطريقة أخرى، فيقرر: أن الفنون البعيدة عن الأخلاق لا تمتلك هي الأخرى أي دور تنموي، وفى هذا السياق اتفق أفلاطون مع سقراط(469ق.م-399ق.م) وكل فلاسفة الأخلاق، في إتهام الفنون بإفساد العقول وتضليلها، وبأنها سببًا مباشرًا لإفساد الوعى وانحطاط الأخلاق، بما تمتلك من قدرة على إثارة الغرائز والانفعالات، التي تهدد استقرار واستمرار المجتمع الفاضل، والذي يقتضي استقراره من وجهة نظر أفلاطون، الطاعة التامة من المرؤوس للرئيس، وهو أمر من الصعب بلوغه دون وجود سلطة توجه الفن، وذلك لأن الفن كما يراه أفلاطون كثيرًا ما يتدخل بتعبيراته، فيفسد هذا النظام، ويعمل على نشر الفوضى في المجتمع. ويدلل أفلاطون على ذلك بأن ما يبدعه الشاعر من مادة الانفعالات، يمكن أن يصرف الناس عن ممارسة الفضيلة، وقد عبر عن ذلك في محاورة الجمهورية بقوله: إن تأثير الشعر المأساوي على الأخيار، وعلى الجنس البشرى بشكل عام، يكمن في أنه يطعم ويسقي الشهوات بدلًا من أن يجففها، ويدعها تتحكم بالروح بدلًا من أن يضبطها [2].

ولا يقتصر هذا الأمر من وجهة نظر أفلاطون على الشعر والموسيقى والتصوير فحسب، وإنما ينطبق على جميع الفنون، فالفنون بكل أنواعها بإمكانها أن تهدد الأوضاع التي استقرت عليها أفكار الناس وأفعالهم، إذ أن استجابة الناس لها، تكون أقوى من أي شيء آخر، وهو ما يزيد من خطورتها، "فنغمات الموسيقى بطراوتها، قد تخمد حماسهم الحربي، أو

[1] – أروين أدمان :الفنون والانسان ،ص48

[2] –أفلاطون :الجمهورية ، نقله إلى العربية شوقى داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع ،بيروت، 1994،ص443

تلطف من حدته، والصور التي يحاكى فيها الرسامون الطبيعة، يمكن أن تستهوي الناس، وتصرفهم عن أشكال الحقيقة الأصلية الثابتة [1].

والواقع أن ما يريد أفلاطون أن يؤكد عليه هنا هو أن انصراف الفنان عن تجسيد الفضيلة في أعماله الفنية، لا يمثل تدهورًا فنيًا فحسب، وإنما يمثل أيضًا تدهورًا أخلاقيًا يجعل من الفن تلوثًا فكريًا وثقافيًا، يهدد الحضارة بأسرها، إذ لا يحرك الفن البعيد عن الأخلاق الانفعالات والغرائز فحسب، وإنما يشتت العقل أيضًا، وهو أمر يستحيل معه مشاركة الفن في نهضة المجتمع، بل على العكس من ذلك يزيده انحطاطًا، إذ من شان المضامين الفنية التي يقدمها الفن، وخاصة التي تبتعد عن الأخلاق الإيجابية، أن تسهم بمرور الوقت في هدم ثقافة المجتمع ككل، وبالتالي تنأى بالفن عن تحقيق أي تنمية فعلية على المستويين المادي و المعنوي .

والمتأمل في تاريخ الفلسفة يمكنه أن يلاحظ أن موقف أفلاطون الذى هاجم الفن والفنانين، وحرمهم من المشاركة في تنمية المجتمع، بحجة أن ما يبدعه الفنان قد يصرف الناس عن صالح الدولة، قد وجد من يؤيده ويتأثر به في كل العصور والمراحل التاريخية؛ وفى هذا السياق، يمكننا العثور على اتهامات مماثلة لرأيه في العصور الوسطى عند اللاهوتيين، الذين نظروا إلى الفن على أنه من صنع يد الشيطان، ولم يكن الجمال الحسى في نظرهم، سوى الطريق المؤدى إلى هلاك الروح[2] ، ولعل أبرز من عبر عن ذلك هو القديس أوغسطين(354م-430م) الذى ركز كل هجومه، على الجانب الحسى الذى تجرف الفنون الناس إليه، مؤكدًا بذلك على أن الفنان شخص خطر، لأنه يشتت الفكر، ويقود المجتمع إلى الانحلال والتفكك، وهذا لاقتناعه العميق بأن الفنون تحقق الجانب الأهم من وظيفتها في الاستمالة، والإقناع عن طريق الحواس .

وفي الفكر الحديث اعتبر الكثير من الفلاسفة المحدثين، أن الفن هو المسئول الأول عن فساد معظم المجتمعات، ولعل من هذا القبيل مثلًا، ما فعلته حركة الإصلاح الديني في أوربا، إذ راح أصحابها يدعون إلى ضرورة استبعاد معايير الجمال، من أجل الاقتصار على التمسك بقيم الأخلاق، وهذا أيضاً ما ذهب إليه المفكر الفرنسي جان جاك روسو(1712-1778) الذى اتهم الفن، بأنه مفسدة للأخلاق، ووصفه بأنه بدعة استحدثها المجتمع

[1] – أروين أدمان: الفنون والإنسان ، ص52،53.

[2] –اروين ادمان : الفنون والانسان ،ص53

الصناعي، ليدنس بها طهارة الطبيعة النقية الخالصة ،مؤكدًا برأيه هذا على عدم احتياج المجتمع للفن الذى يخرج الإنسان عن فطرته.

ولا نرانا في حاجة إلى الإفاضة في شرح موقف تولستوي (1828-1915)، الذي أدان الفن كله باسم الأخلاق [1]، وأكد على أنه إذا أردنا تنمية فعلية للمجتمع، فمن الأفضل ألا يكون هناك فنًا على الإطلاق، وقد عبر عن ذلك في ختام كتابه "ما الفن "، عندما طرح سؤاله التالي أيهما أفضل وجود الفن الحديث، بما فيه من فن جيد وفن رديء، أم عدم وجود فن على الإطلاق؟ وأجاب عن هذا السؤال بقوله: أعتقد أن كل إنسان عاقل وأخلاقي سيحكم في هذه المسألة، مثلما حكم أفلاطون في محاورة الجمهورية، بأن الأفضل ألا يكون هناك فنًا على الإطلاق [2]، وذلك لأنه اكتشف أن الفن الذي أيده لسنوات طويلة، كان تجربة أبعدت الناس عن الخير، وقادتهم إلى الشر والعنف، ومن هنا شدد على ضرورة نبذ الفن، الذي يكون موضوعه غير لائق، أو يثير انفعالات تستحق أن تقمع.

وفى الفكر المعاصر يمكن القول: بأن سارتر(1905-1980) يعد من أشد المتابعين لأفلاطون في ضرورة توظيف الفن لخدمة المجتمع، ولتوضيح ذلك نرى أنه: إذا كان أفلاطون هو أول من هاجم الفن والفنانين، ودعا إلى الالتزام الفني في الفكر القديم، فإن سارتر قد قام بالدور نفسه في الفكر المعاصر، وخاصة في المرحلة الثانية من حياته الفكرية، التي اتجه فيها إلى الالتزام، وأسس فيها أفكاره على أساس المسئولية الاجتماعية، وإن كان سارتر قد قصر الالتزام على الأدب وحده، فرأى في العمل الأدبي عملًا جادًا، يرمى إلى غاية أبعد منه، واعتبره رسالة يوجهها الأديب إلى القراء، بهدف معالجة قضايا المجتمع وإصلاحه، أما باقي الفنون؛ فقد تركها سارتر حرة بدون التزام، ولعل هذا ما عبر عنه بوضوح في كتابه "ما الأدب " حين قال: إن الكلمات مسدسات عامرة بقذائفها، فيجب على الناثر أن يحسن التصويب إلى أهدافه، ويجب أن يوجه القارئ نحو الطريق القويم[3] .

يمكننا في ضوء ما سبق أن ننتهي إلى ملاحظة مهمة، وهي اتفاق أفلاطون والتابعين له، على أن تجسيد الفن للرذائل، وابتعاده عن الأخلاق الإيجابية هو ما يزيد من خطورته، إذ

---

[1]– زكريا ابراهيم: فلسفة الفن في الفكر المعاصر، مكتبة مصر، الفجالة ،1988، ص174

[2]Tolestoy. Leo: What Is Art, Ed By G. Lee Bowie In (Twenty Questions, And Introduction To Philosophy) Harcourt Brace Jovanovich Publishers Sann Diego, New York, p.p261,262

[3] –سارتر: ما الادب ،ترجمة محمد غنيمى هلال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،2000،ص21

يجعل هذا الأمر رسالة الفن، تحيد عن الخط المنشود له، وينأى به عن المشاركة في تنمية المجتمع.

ولكن إذا كان الفن البعيد عن الأخلاق الإيجابية، وعن المنفعة لا يمتلك أي دور في التنمية من وجهة نظر أفلاطون، فهل معنى ذلك أن أفلاطون قد حرم الفن تمامًا من المشاركة في التنمية؟

الإجابة عن هذا السؤال تكون بالنفي، فأفلاطون رغم كل هذا لم يحرم الفن تمامًا من المشاركة في التنمية، وإنما وضع له شروط كي يشارك في التنمية، بل ويمكن القول: بأنه كان أكثر حرصًا على ربط الفن بالتنمية، والدليل على صحة ما نقول إن من يتأمل في محاولة أفلاطون لفرض التصور الأخلاقي على الفن، سيجد أنها تعد دليلًا قويًا، على رغبته العميقة في منح الفن دورًا في التنمية. فأفلاطون يعد في تقديري، من أوائل الفلاسفة الذين انتبهوا منذ القدم إلى الدور الخطير، الذي يلعبه الفن في التنمية، حتى قبل أن يوجد مصطلح التنمية نفسه، وذلك حين أصر على ضرورة العناية بالفنون والآداب، وتوظيف تأثيرها العميق على المتلقي لصالح تنمية المجتمع الفاضل. وهو ما عبر عنه في برنامجه التنموي الذي تجلى فيما يبدو لي: في ثلاث خطوات منظمة، تعكس تخطيطًا سليمًا لا يعرف العشوائية.

الخطوة الأولى: أفصح فيها أفلاطون عن أهم فكرة في برنامجه التنموي؛ وهي التأكيد على ضرورة ارتباط الفن بالأخلاق، وهذه الفكرة ترجع بجذورها إلى سقراط الذى وضع أسس النظرية الأخلاقية في الفن، وملخصها أن الجمال نوع من الخير الأخلاقي، وأن الغاية الأساسية من الفنون؛ هي توجيه الناس نحو الخير، وحثهم على كره الشر، وإصلاح عاداتهم وتقويم أخلاقهم، فالفنان لابد أن يكون صاحب رسالة إنسانية وأخلاقية، تؤدى دورًا في الاستنارة الأخلاقية والثقافية، وذلك من خلال التزامه في أعماله الفنية بتقديم الصور الراقية، التي تسهم في رفع مستوى الوعى .

وإلى جانب هذا الأساس النظري انطلق أفلاطون في أولى خطوات برنامجه التنموي من أرض الواقع أيضًا، حيث لاحظ أن أغلب الفنون في عصره، لا تدفع المجتمع إلى الأمام، ورأى أنه لكى تشارك هذه الفنون بقوة وتلعب دورًا مؤثرًا وإيجابيًا في التطلع لمدينة فاضلة، لابد من العناية بها بحيث تتفق مضامينها مع القيم والمبادئ الأخلاقية ، وهذا لاقتناعه العميق بأن طول مصاحبة الإنسان للآثار الفنية، وتذوقها قد يخلق منه إنسانًا ذا خلق راق، يليق بشكل الدولة المثالي ،وبدون ذلك يغدو الفن خطرًا على تنمية المجتمع، ومن هنا طالب الفنانين بفن يسهم في نشر المثل الأعلى بين المتذوقين، من خلال اقتصار أعمالهم الفنية على تجسيد

القيم النبيلة، التي تسهم في تربية الشباب أخلاقياً، وتجنبهم الانفعال والشهوات ، وبذلك يسهموا من جانبهم في تنمية أخلاق الفرد، وملكاته وقدراته بوصفها أساس النهوض الفعلي. ومن هذا المنطلق وفى سياق، حرص أفلاطون على نجاح هذه الخطوة، أكد على أنه لا يستطيع أن يقبل في دولته من الشعراء، إلا ذلك الذي يشيد بفضائل الآلهة والأخيار من الناس [1]

أما الخطوة الثانية: فإنها تتلخص في أنه: إذا كانت مشاركة الفنان بدور إيجابي في تنمية المجتمع، مرهونة بوجود تخطيط سليم يتخذ من أخلاقيات الفن دعامة له، فإن أفلاطون قد رأى أن هذا الأمر غير كافٍ بمفرده ،وعليه ذهب إلى أنه من الضروري وضع كل الاحتياطات اللازمة لتوظيف الأثر القوى، الذى تمارسه الفنون لخدمة المجتمع، وهو ما تمثل بوضوح في تأكيده المستمر، على ضرورة فرض رقابة صارمة على الفن والفنانين، وهذا لاقتناعه العميق، بأنه إذا كانت هناك ضرورة لارتباط الفن بالأخلاق، حتى يكون فعالًا في تنمية المجتمع، فإن نفس الضرورة تقتضى ارتباطه بالرقابة، التي تقع عليها مسئولية إجازة العمل الفني أو منعه، ولها دورها الفعال في حماية المجتمع، ونشر القيم الإيجابية، فالرقابة من وجهة نظر أفلاطون؛ هي الحل الوحيد والضمان الحقيقي، لكى يشارك الفن مشاركة فعالة في التنمية .

وفي هذا الإطار اتجه أفلاطون في محاورتي الجمهورية والقوانين، إلى وضع شروط وقواعد صارمة للفن، وطالب الفنانين بلون من الالتزام حتى يضمن، أن يكون للفن تأثيرًا إيجابيًا في التنمية المستدامة، وذلك حتى قبل وجود مصطلح التنمية المستدامة نفسه .ففي محاورة الجمهورية مثلًا، نجده يؤكد على أنه من الضروري أن تشمل الرقابة جميع الفنون بلا استثناء ، وفي ذلك يقول: "ليس علينا أن نراقب الشعراء وحدهم، وندفعهم إلى التعبير عن مظاهر الخير في أعمالهم، وإلا منعناهم من ممارسة عملهم في مدينتنا، بل ينبغي أن نراقب عمل بقية الفنانين، فنمنعهم من محاكاة الرذيلة، والتهور والوضاعة والخشونة، سواء كان ذلك في تصوير الكائنات الحية أو العمارة، وكل أنماط التعبير، وإذا لم يخضعوا لأوامرنا منعناهم من العمل[2]

[1] – جيروم ستوليز: النقد الفنى ،دراسة جمالية وفلسفية، ترجمة فؤاد زكريا، مطبعة جامعة عين شمس، 1974،ص516.

[2] – جيروم ستولنتيز: النقد الفنى .

وعلى الرغم من أن كلام أفلاطون هنا يكشف لنا عن مدى القسوة والحزم الذي تعامل بهما أفلاطون مع الفنون، إلا أننا لا نختلف معه في أهمية الرقابة على الأعمال الفنية ودعم فلسفة الانتقاء، وتربية المتلقي على كل ما هو جيد إذا أردنا تنمية حقيقية، وذلك لأن المصلحة العامة تقتضي منا، وقف كل ما يدخل في نطاق الأفكار الهدامة للمجتمع.

الخطوة الثالثة: تتسم هذه الخطوة بأنها خطوة عملية، فبعد أن فرغ أفلاطون من وضع أسس النظرية الأخلاقية في الفن، بدأ يفكر في التنفيذ، وقد تجلى هذا في إصراره على استبعاد كل فن، من شأنه أن يثير الانفعالات التي تهدم توازن النفس، حرصاً منه على إخضاع النشىء للمؤثرات الفنية الصالحة فقط، وفى هذا الإطار أكد على أنه من الضروري، أن تكون الموسيقى المسموح بها من نوع مناسب [1]، وذلك لأن الموسيقى تمتلك القدرة، على تشكيل نفوس الصغار وإعدادهم للحياة، وأنها تستطيع ضبط أوتار النفس، ولهذا شدد على ضرورة إبعاد الصغار عن الموسيقى، التي تشيع في نفوسهم الميوعة والخوف أو حب اللذة، وأكد على أنه من الضروري الإشراف بدقة على تعليمهم، وهذا لاقتناعه التام بأن الإنسان يشب وفقًا لما يربى عليه، فهو ينمو حتمًا لما يستمتع به، سواء كان ذلك الشيء الذى يستمتع به خيرًا أو شرًا[2] .

وقد رأى أفلاطون في هذا السياق، أنه لكي تقوم الفنون بدور فعال في استمرار واستقرار المجتمع الفاضل، لابد أن تقتصر على إبداع الجمال، أي تحقيق المثل الأعلى الأخلاقي، إذ أن محاكاة السلوك الرديء محاكاة أدبية، تؤثر في حياة الإنسان الذي يتقمص ما يُعرض عليه، ويعمل على تقليده.

ومن هذه الزاوية يمكن القول بأن أفلاطون: قد انتبه منذ القدم، إلى أن المشكلة تكمن في الفن والحل أيضاً يكمن بداخل الفن الهادف، بما ينطوي عليه من فكر تنويري، يقود المجتمع إلى التنمية الفعالة، وبدون ذلك لن تكون هناك تنمية حقيقية للمجتمعات.

والحقيقة أننا نتفق مع أفلاطون بشدة في أننا لا نستطيع بأي حال من الأحوال إهمال أخلاقيات الفن، عند وضعنا لمعايير وآليات الإصلاح والتقدم، وذلك لأن الفن البعيد عن الأخلاق هو بالفعل عائق حقيقي أمام التنمية، إذ يمثل سبباً مباشراً لإفساد الوعى وانحطاط الذوق، وأعتقد أن هذا ما نعانى منه الآن، فهناك نسبة كبيرة من الإنتاج الفني، تعانى أزمة

[1] – أفلاطون:محاورة القوانين،ترجمه من اليونانية الى الانجليزية تيلور، ونقله الى العربية محمد حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986, ص129.

[2] – افلاطون: القوانين ص129

كبيرة على مستوى الشكل والمضمون، وهذا في تقديري يعد سببًا مباشرًا للتخلف التنموي، وآية ذلك أننا لو استعرضنا بعض أنواع الفنون كالسينما مثلًا، سنلاحظ أنها تعانى أزمة كبيرة كمية وكيفية في آن واحد، كمية تتجلى في تراجع عدد الأفلام مقارنة بما كان يعرض من قبل، وكيفية تظهر في هبوط، وتدنى مستوى مضامين الأفلام، وهو ما يؤثر تأثيرًا سلبيًا على وجدان المتلقي، وما يقال عن السينما: ينسحب بدوره على الغناء، الذي يعاني هو الآخر أزمة على مستوى الشكل ومستوى المضمون (كأغاني المهرجانات مثلًا، التي تعد في تقديري تلوثًا سمعيًا بكل ما تحمله الكلمة من معانى)، وينسحب هذا الأمر أيضًا على المسرح، فالمسرح الذى عرف عنه دائمًا أنه دعامة من الدعامات الأساسية لبناء النهضة الحقيقية، لما له من دور قوى وفعال في تنمية الوعى وتطوير الملكات، نلاحظ أنه في الفترة الأخيرة، قد اقتصر فيما يقدمه على احتياجات فئة محددة، تتطلب فن بسمات خاصة كمسرح مصر مثلًا، وما يقدمه من عروض تخلو من الحبكة الدرامية، وتفيض بالإسفاف والابتذال والاستخفاف بمنظومة القيم من خلال الإيفهات السمجة والمملة التي تتكرر في كل عروضه .

ومن هذا المنطلق يمكن القول: بأن الرقابة بالمعنى الأفلاطوني، تحمى بكل تأكيد من تسلل الأفكار الهدامة، وتتصدى بكل حزم لأي تجاوز من شأنه إهدار قيم وثوابت المجتمع أو إحداث أي فوضى فيه، وذلك لأن الفن الهادف يعد بالفعل أقوى أدوات التنمية؛ إذ يؤثر في السلوك الإنساني تأثيرًا مباشرًا وعميقًا.

ولكنى أرى: أن أفلاطون بتشدده في تطبيقها قد جعل منها حائلًا، يقف أمام أي نهضة في مناخ الإبداع ، وأمام أي تنمية حقيقية، وذلك لأن الفن الهادف الذى يعتبره أفلاطون أقوى أدوات التنمية؛ هو مجرد نوع واحد من الفن كل هدفه تجسيد الفضيلة، أو الأخلاق الإيجابية التي تخدم المدينة الفاضلة فقط، وبالرغم من أهمية هذا النوع من الفن، إلا أنني أرى: أنه بمفرده لا يكفى لخلق إنسان واع قادراً على المشاركة في التنمية، وإنما هو في تقديري يعد وسيلة مناسبة لخلق إنسان محدود الفكر والثقافة ، عاجز عن فهم كل ما يعرض عليه من أعمال فنية، لأنه لا يعرف إلا قيمة نوع واحد فقط من الفن، وهو الأعمال التي تجسد القيم الإيجابية وحدها، فمثل هذه الأعمال التي يروج لها أفلاطون، ليس بإمكانها أن تخلق إلا إنسانًا أحادي الاتجاه محدود الذوق، وذلك لأن نطاق الذوق لا يتسع إلا عندما يتعرض المتلقي لأعمال فنية، تخاطب كل ملكاته، وتتناول كل نواحي الحياة بخيرها وشرها .

ومن ناحية أخرى يمكن القول: بان أفلاطون بإصراره على ضرورة تجسيد الفن للأخلاق الإيجابية وحدها قد تجاهل أشياء مهمة منها: أنه ليس بالعواطف الطيبة وحدها،

يبدع الإنسان الفن الذي يسهم في بناء المجتمعات، وذلك لأن العيوب التي قد يجسدها الفن ليست من اختراعه، وانما هي جزء أساسي من المجتمع، لابد من مواجهتها إذا أردنا نهضة حقيقية، وذلك لأن المجتمعات لا تبنى بالتجميل والتزييف، وإنما تبنى بتقديم الوجه الحقيقي للواقع، وتسليط الضوء على مشكلاته دون مبالغة أو تزييف.

ومن هذا المنطلق يمكن القول: بأن اقتراحات أفلاطون بشأن الفنون غير مقبولة بشكل تام، وذلك لأننا إذا أردنا فنًا يسهم في تنمية المجتمع؛ فإن هذا الفن لا يمكن أن يكون متعلقاً بالخيال كما نادى أفلاطون، وإنما يكون في المقام الأول نابع من أحوال وظروف المجتمع، ويحرص في المقام الأول على تغييره، فما قيمة الفن إن لم ينزل إلى أرض الواقع! لقد نسى أفلاطون أن الفنان ليس هو الرجل الأخلاقي المعنى بتصويب الأخطاء، وتقويم السلوك الإنساني، كما أنه ليس من اختصاصه أيضًا تنمية الجوانب المادية والاقتصادية في الحياة، وانما هو كما يقول: أروين أدمان شخص "مهتم بتنمية البعد الروحي للحياة، من خلال تجسيد صورة ذهنية جذابة في قالب مادي"[1].

هذا ويمكن القول: بأنه إذا كان أفلاطون قد ذهب إلى أن المتلقي يتقمص ما يعرض عليه من أخلاق داخل العمل الفن، فإنه كان ينبغي عليه أن ينتبه إلى أننا إذا أردنا تنمية فعلية للمجتمع، فمن الضروري أن يواجه الفنان العيوب والأخطاء الكامنة في المجتمع، ويعمل على تصحيحها بما لديه من قدرة على التعبير والتأثير، تكفل له تقديم صورة منظمة للواقع . تنطلق من مشكلاته، ولكنها تحرص على تجاوزها وتعديلها في الوقت نفسه، ولعل هذا ما عبر عنه أرسطو فيما بعد عندما منح الفن دورًا في التنمية، حتى إذا تعارض مع ما نمتلكه من أخلاق إيجابية، وذلك لأن الفن من وجهة نظره، لم يكن هو التعبير عن الأشياء الجميلة فحسب، وإنما كان التعبير الجميل عن أي شيء

ويبدو لي: أن ما أوقع أفلاطون في كل هذا التناقض، أنه أراد أن يحافظ على نسقه الفلسفي العام، وحاول أن يصوغ أفكاره الجمالية بما يتفق مع هذا النسق، فانطلق من نسقه الفلسفي الذى جعل فيه الخير رئيسًا على باقي القيم، إلى التأكيد على ضرورة تطبيق نفس الأحكام الأخلاقية، التي يخضع لها الناس في حياتهم الفعلية على الأعمال الفنية، فإذا كنا نرفض الخيانة من الناحية الأخلاقية؛ لما لها من آثار سلبية على المجتمع ، فإن الأعمال الفنية التي تعبر عنها، هي الأخرى تعد مرفوضة ويجب منعها، ويجب إبعاد صاحبها عن المدينة الفاضلة .

[1]– أروين أدمان :الفنون والانسان ص59

وبهذا المعنى خلط أفلاطون بين أمرين لا يصح الخلط بينهما، وهما القيمة الجمالية والقيمة الأخلاقية، فكان حكمه على العمل الفني حكمًا أخلاقيًا، ولم يكن حكمًا جماليًا، حيث ركز فيه على المضمون وحده، ونسى باقي العناصر الأخرى التي تتضافر في صياغة العمل الفني، وفى تحديد قيمته. لقد غاب عن أفلاطون عنصر مهم جدًا؛ وهو أن قيمة العمل الفني، لا يمكن أن تقاس بنوع الأخلاق التي تتجسد بداخله، لأنه لو حدث ذلك لارتفعت قيمة أتفه الأعمال، التي هي مجرد صور من الوعظ والإرشاد الأخلاقي، في مقابل انخفاض قيمة الأعمال الفنية الرائعة، التي لا تقدم لنا الأخلاق بصورة مباشرة.

ويبدو لي أن هذا ما انتبه إليه أصحاب اتجاه الفن للفن، عندما أكدوا على أن القيمة الجمالية مستقلة تمامًا عن الأغراض النفعية والمادية والعملية، ولكن هل نجحوا بهذا الرأي أن يمنحوا الفن دورًا في التنمية، أم أن هذه الفكرة كانت خارج حساباتهم تمامًا؟ هذا ما سنجيب عنه في السطور التالية.

رابعًا: الفن وتنمية المجتمع عند أصحاب الفن للفن

إذا ما انتقلنا بالقضية التي بين أيدينا، من وجهة النظر السابقة التي تؤكد على الدور الفاعل، والحيوي الذى يمارسه الفن في تنمية المجتمع، ولكن بشرط ربطه بالأخلاق الإيجابية أو ربطه بالمنفعة، إلى وجهة نظر أخرى محاولين تتبع هذه القضية في تطورها، فسنجد أنفسنا أمام اتجاه الفن للفن، الذى ضحى أنصاره تمامًا بالبعد الأخلاقي، وفصلوا الفن تمامًا عن أنشطة الحياة العملية، ورفضوا مشاركة الفن في تنمية المجتمع معتبرين ذلك ميزة لا عيبًا، وحجتهم في ذلك كانت هي الحفاظ على قدسية الفن، إذ يرون أن كل من الاتجاه الأخلاقي والاتجاه النفعي، قد أسرفا إسرافًا ملحوظًا في توظيف الفن لخدمة بعض أغراض الحياة، بصورة طغت فيها الجوانب المادية على العلاقات الإنسانية، وتحول في ضوئها الفن إلى سلعة تخضع لمعيار المكسب والخسارة؛ وهو معيار لا يعترف باستقلالية الفن وإنما يعترف فقط بما يدره الفن من فائدة أو منفعة، وتبعًا لهذا المعيار أصبح كل شيء قابلًا للبيع والشراء، وأصبح الفن سلعة استهلاكية .

ويزعم أصحاب هذا الاتجاه، بأنهم ما جاؤا إلا ليعيدوا للفن التوازن، الذى أخلت به هذه الاتجاهات التي عجزت من وجهة نظرهم، عن فهم حقيقة الفن والأعمال الفنية، وكان الحل من وجهة نظرهم؛ هو التأكيد على أن الفن غاية في ذاته، وأنه غير مطالب بتحقيق، أي أغراض أخلاقية أو مادية أو نفعية، وذلك لأن الأعمال الفنية تخاطب الحس الجمالي

الخالص، بدون أن تخلط هذا الحس مع أي شيء آخر خارج عن إخلاصه[1] ، وذلك لأن توجيه الفن نحو غايات نفعية أو أخلاقية، يعد إفسادًا للفن ذاته وذلك لأن الفن يؤسس على مبادئه الخاصة، ومن الضروري أن يُحكم فقط بمعاييره النقدية الخاصة[2] . والمعيار الوحيد لتحديد جودته؛ هو القيمة الجمالية وحدها، ولعل هذا ما عبر عنه فلوبير (1821–1880) بقوله: "كل ما أريد أن أفعله؛ هو أن أنتج كتابًا جميلًا حول لا شيء، وغير مترابط إلا مع نفسه، وليس مع عوالم خارجية"[3]

وقد تبنى وجهة النظر هذه الفيلسوف، وعالم الجمال الإيطالي بندتو كروتشه (1866–1952) فهو يعد من أهم المعبرين عن هذا الاتجاه في القرن العشرين، حيث قرر أن قيمة العمل الفني مستقلة تمامًا عن الأخلاق، وذلك لأن العمل الفني قد يعبر عن فعل يحمد، أو يذم من الناحية الأخلاقية، لكن العمل الفني في حد ذاته، من حيث هو عمل فنى، لا يمكن أن يحمد أو يذم من الناحية الأخلاقية، إذ ليس هناك على حد تعبيره قانوناً جنائياً، بإمكانه أن يحكم على عمل فنى بالسجن، أو الإعدام لعدم التزامه بالأخلاق الإيجابية، وكذلك ليس هناك حكم أخلاقي يمكن أن يصدر عن إنسان عاقل، ويكون موضوعه عملًا فنيًا، ولهذا وجب التمييز بين المعايير الأخلاقية والمعايير الجمالية عند تناول الأعمال الفنية، إذ لا يصح أن نحكم على العمل الفني من وجهة نظر الأخلاق، فنقول مثلًا: هذا الشعر أخلاقي أو هذا الشعر غير أخلاقي، لأن هذا الحكم لا يختلف في شيء عن حكمنا على المثلث المتساوي الأضلاع، بأنه أخلاقي والمثلث المتساوي الساقين بأنه غير أخلاقي[4].

إن ما يريد أن يؤكد عليه كروتشه هنا؛ هو أن القيمة الجمالية هي المعيار الوحيد لتحديد جودة العمل الفني، وأنها تكون مستقلة تمامًا عن المعايير الأخلاقية، وذلك لأن تدخل الأخلاق في مجال الفن، قد حوله في كثير من الحالات، إلى صورة فجة من صور الوعظ والإرشاد، هذا فضلًا عن أن تدخل النزعة النفعية في الفن، قد أبعدت الفن عن طابعه الحقيقي، وأدت إلى تحويله إلى سلعة استهلاكية، لا تتوقف عن الهبوط والابتذال ومن ثم فقد دوره التنويري في مجال التنمية.

---

[1] -The Art World Journal:Art for Art's Sake, it's Fallacy and Viciousness,Vol.2,(May,19 17)p98,stable URL://www.jstor.org/stable/25587887,Accessed:23-01-2017,19:03UTC

[2]- John.C -Van .Dyke,L.H.D:Art for Art's Sake, N. Y,Charles Scrilner's Sons,1893,p.6

[3]مالكوم برادبرى،جيمس ماكفارلن :الحداثة 1890–1930 ،ترجمة مؤيد حسن فوزى،بغداد،دار المأمون للترجمة والنشر،1987،ص25

[4]Croce. B: Guid to Aesthetics, Tr. By Patrick Romanell, Rengenery, Gateway, Inc, 1965,P.13

ورغم اقتناعي التام بأن الفن لا يمكن أن يكون تابعًا للأخلاق، أو لأى شيء آخر إلا أننى: لا أستطيع أن أقر كل ما يذهب إليه أصحاب هذا الاتجاه بشأن علاقة الفن بالأخلاق، وخاصة الفنانين منهم الذين أفرطوا في استخدام الحرية ، وأفرطوا كذلك في التأكيد على استقلال الفن عن كل الأغراض النفعية والعملية، وهذا لاقتناعي العميق بأنه إذا كان الفن يتمتع بالاستقلال عن الأخلاق، أو عن المنفعة؛ فإنه لا يتمتع تجاههما بالحرية الكاملة، التي روج لها أنصار الفن للفن، تلك الحرية التي حولت الفن في خاتمة المطاف إلى عبث لا طائل من ورائه، وحرمته من أن يكون له أي دور في أنشطة حياتنا العملية، حيث تم اختزال قيمته فيما يقدمه لنا من متعه جمالية مباشرة .

لقد ضحى أصحاب اتجاه الفن للفن من الفنانين بالفضيلة من أجل اللذة، وتخيلوا أن الفن في استقلاله عن الأخلاق يعنى التحلل التام منها، وتبعاً لهذا لم تعد هناك موضوعات صالحة للتعبير، وأخرى غير ذلك، فأي موضوع يصلح لكى يكون عملًا فنياً، لأن العبرة ليست بالموضوع، وإنما بالقدرة على التعبير، وفى هذا المعنى يرى فلوبير (1821-1880) أن أخلاقية الفن تنحصر في الجمال ذاته، إذ ليس هناك للفن موضوعات جميلة وأخرى قبيحة، مادام الأسلوب وحده طريقة مطلقة في رؤية الأشياء[1] ، ولعل هذا ما عبر عنه أوسكار وايلد أيضاً بقوله: "ليس هناك كتاب يمكن أن يوصف بالأخلاقي أو اللاأخلاقي، إذ ليس ثمة سوى كتب جيدة التأليف، وأخرى سيئة التأليف[2]، بل إن أوسكار وايلد يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فيرى أنه ليس هناك من عواطف أخلاقية لدى الفنان، وحتى إن وجدت فإنها تكون تكلفًا في الأسلوب على حد تعبيره[3].

وبهذه الطريقة فصل أصحاب هذا الاتجاه بين الشكل، والمضمون داخل العمل الفني ومالوا بصورة ملحوظة في أعمالهم الفنية إلى الشكل وحده، ولم يكترثوا بنوع المضمون، وهو ما تجلى بوضوح لدى العديد من شعراء هذا الاتجاه، وخاصة من أتت بعض أعمالهم لتتعارض تمامًا مع ما تقره الأخلاق الإيجابية، وعلى رأس هؤلاء يأتي فلوبير الذى حوكم بسبب روايته "مدام بوفاري"، تلك الرواية التي أظهر فيها البطلة في علاقات زنا، كما يمكننا أيضًا العثور على هذا التحرر التام، من أى مسئولية تجاه الأخلاق عند أبرع شعراء هذا الاتجاه، وهو

[1] -جان برتليمى: بحث في علم الجمال، ترجمة أنور عبد العزيز، مراجعة نظمي لوقا، دار النهضة مصر الفجالة – بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر-القاهرة-نيويورك ،1970، ص461

[2] جيروم ستولينتز :النقد الفني،ص530

[3] Rader.M & Jessup.B:Art and Human Values,Prentice-Hall,N.Y-1967,P.214

بودلير(1821-1867) هذا الشاعر الذى منح لنفسه الحرية الكاملة، ليس تجاه الأخلاق فحسب، وإنما تجاه الدين والسياسة، وكل النظم الاجتماعية الأخرى، وتخير أبشع الصور وأقبحها موضوعات لشعره، وعبر عنها بمنتهى البراعة الفنية، تلك البراعة التي زادت في تقديري هذا القبح جاذبية، ويصدق هذا الأمر بصورة كبيرة على أشد أعماله شذوذًا وإغرابًا، وهى مجموعة قصائده المسماة "بأزهار الشر"، وهى مجموعة من القصائد تحفل بأوصاف لسلوك جنسي لا يليق ذكره عادة، ولموضوعات نجدها عادة منفرة[1]، وهو ما نلمسه بوضوح في نماذج من قصائد . هذه المجموعة مثل "نهر النسيان " و "إلى التي تفيض فرحًا "و"الحلى ".

ولعلنا نستطيع أن نتوصل إلى نتيجة مهمة في ضوء ما سبق وهى أن أصحاب الفن للفن بهذه الطريقة، قد غاب عنهم أن الفن في استقلاله عن الأخلاق، لا يعنى الدعوة إلى الرذيلة بأي حال من الأحوال، وأعتقد أن هذا هو السبب الجوهري، الذى جعل العديد من الأصوات تتعالى، وأنا من بينهم لانتقاد الأعمال الفنية التي قدمها أتباع مدرسة الفن للفن، ووصفها بأنها عائق فعلى أمام تنمية المجتمع، وخاصة أعمال فلوبير وبودلير، فأعمالهم الأدبية التي رجعنا إليها، لا تتعارض مع ما نمتلكه من أخلاق فحسب، وإنما هي أعمال يختفى منها البعد الأخلاقي تمامًا في كثير من الحالات .

ويعد تولستوي أبرز من أدان هذه الأعمال الفنية، لأنها من وجهة نظره تدعو إلى الانحراف الخلقي، أو تشجع على الاستخفاف بجميع القيم باسم الفن، وهذا ما عبر عنه بوضوح في كتابه "ما الفن " ففي هذا الكتاب، نلاحظ أن تولستوي لا يدين بودلير أو مالا رمية أو فاليري فحسب، وإنما أدان الأدب الفرنسي كله، باستثناء حالات نادرة واصفاً هذا الأدب، بأنه نتاج جماعات مريضة بالهوس الشهواني، توهموا أنه طالما تركزت حياتهم كلها نتيجة ضعفهم المريض حول نشر الرذائل الجنسية، فإن حياة العالم كله متمركزة حول الموضوع ذاته[2]، ومن ثم وصفهم بأنهم غير بارعين من ناحية الشكل، ومنحطين جدًا من ناحية المضمون .

وبالرغم من اختلافي مع تولستوي في الكثير من آرائه بشأن الفن ، إلا أنني أرى أنه كان موفقاً إلى درجة كبيرة في إدانته لتلك الأعمال التي تستخف بالقيم الأخلاقية باسم الفن،

[1]- جيروم ستولينتز: النقد الفنى ص539

[2] Tolstoy, L: What Is Art?, Translated by Aylmer Maude, A Hersterides Books, New York, Oxford, University Press, 1962 ,p154

فالفن لا يمكن أن يكون تعبيرًا عن كل ما يثير النفس، ويهدم توازنها، ويبدو لي: أن هذا ما عبر عنه أيضاً عميد الأدب العربي طه حسين (1889-1973) عندما وصف "أزهار الشر " بأنها تنطوي على جمال قوى رائع، ولكنه في الوقت نفسه جمال بشع مخيف تضطرب له النفس، وتشمئز في كثير من الأحيان ،إذ يتخير صاحبها أبشع الصور وأقبحها، وأشدها تأثيراً في النفس من هذه النواحي البشعة القبيحة[1] .

وإلى المعنى نفسه ذهب عبد الغفار مكاوي، حين أكد على أن أزهار الشر، هي أكثر مجموعات الشعر الأوروبي الحديث دقة وإحكامًا، من حيث الشكل والتناول الموسيقى للغة، ولكنها لا تخرج من ناحية المضمون عن مجموعة من العواطف السلبية، كاليأس والشوق إلى الموت والشلل والتطلع المحموم إلى المثال والانفعالات الشاذة؛ فهي أزهار تفيض بألوان بشعة من الفساد والقسوة والسقوط [2].

ونحن بدورنا نؤكد على ارتفاع القيمة الجمالية لأشعار بودلير، لأنها من الأمور التي يصعب الاختلاف عليها، إذ ليس في مقدور أي إنسان أن يتنكر لقيمة أشعار بودلير من الناحية البلاغية والفنية، إلا أننا هنا لسنا بصدد الحديث عن قيمة أشعار بودلير، من الناحية الفنية أو قيمته هو كشاعر، وإنما نحن نتحدث عن طبيعة الدور الذى يمكن أن تؤديه مضامين أعماله، التي فاضت في كثير من الحالات بمفردات عابثة، وعبارات خادشه لحياء المتلقي، وأثر ذلك في نهضة المجتمع هذا فضلًا عن أن فكرة الفصل بين الشكل والمضمون عند تقدير أشعار بودلير، أو غيره من الشعراء؛ هي فكرة مرفوضة تماماً في علم الجمال المعاصر، وذلك لأن التقييم السليم للعمل الفني، لا يعترف بالفصل بين الشكل والمضمون، إذ يمنع أي فصل بينهما، من الوصول للقيمة الفعلية للعمل الفني، وفى هذا السياق يحق لنا القول بأن: بلاغة أشعار بودلير هذه هي مجرد جزء من شكل العمل الفني، وليست هي كل العمل الفني، وقيمة العمل الفني كما نعلم لا يمكن أن تنحصر في الشكل دون المضمون، ومن ثم لا يمكن أن تقتصر قيمة أشعار بودلير، في التزامه بالعناصر الفنية وحدها، واستبعاده لكل ما هو إنساني بالتركيز على تجسيد أبشع الصور، وأقبحها وأشدها ابتعادًا عن تحقيق التوازن الداخلي للنفس .

---

[1]- العقاد:الادب والنقد،المجموعة الكاملة ،المجلد السادس والعشرون،دار الكتاب اللبنانى،بيروت،1984، الطبعة الاولى ،ص522

[2]- عبد الغفار مكاوى:ثورة الشعر من بودلير الى العصر الحاضر،الهيئة المصرية العامة للكتاب،2013،ص83،75

وحسبي أن اشير هنا إلى أن السبب الأساسي الذى جعلني أتخذ موقفًا نقديًا من بودلير، أو غيره من أنصار الفن للفن؛ هو تنكره التام للأخلاق، وليس تعبيره عن الشر أو القبح، وذلك لأننا ندرك تمامًا، أن القبح مقولة أساسية من مقولات الإستاطيقا، وأن الفن حين يتخذ من القبح موضوعًا له، فإن هذا الأمر لا يعد مشكلة في حد ذاته، لأن الفن الحقيقي هو الفن الذى يحرك فينا الحياة بكل أبعادها، خيرها وشرها دون أدنى خوف، فالخير في ذاته كالشر في ذاته، لا يمثل خطورة إلا حين يضاف إلى غيره، والدليل على ذلك أن ما هو خيرًا في ذاته، قد يصبح شرًا في علاقاته المتبادلة، وما هو شرًا في ذاته قد يصبح خيرًا في علاقاته المتبادلة، ولكن ليس على طريقة فلوبير أو بودلير، اللذين انتزعا من الشهوات الشيطانية صورًا جمالية، فاضت بالفوضى الجنسية والبذاءة والشر والقبح، وهو ما يدفع حياة الناس نحو الأسوأ، خاصة وأن أتباعه يزعمون بأنه مهما كان الموضوع غير أخلاقي، فإن من حقهم التعامل معه[1]، ونسوا بزعمهم هذا أنه عندما يكون الفن في حالة من الانحطاط، تصبح الحياة الاجتماعية في حالة من التخلف، وأنه كلما فاض الفن بالتعبيرات العارية من الحياء زاد فساده وبالتالي، زاد فساد وانحطاط المجتمع ككل، ولعل هذا ما عبر عنه جورج سانتيانا(1863-1952) حين قال: إن كل دافع أو اندفاع وضمنة الاندفاع الجمالي، يكون شرًا في نتائجه، إذا كان يجعل الانسجام في المجرى العام للحياة مستحيلًا، أو كان يؤدى إلى تشتت الروح ودمارها[2]. وعليه فإن أعمال بودلير وفلوبير فيما يبدو لى بتركيزها على الشكل، واهمالها للمضمون الأخلاقي تعتبر عائقاً فعلياً أمام تنمية المجتمع

هذا ويمكن القول: بأنه بينما تذهب وجهة النظر السابقة، إلى التأكيد على أن الفن الذى يروج له أنصار الفن للفن، يعد هو الآخر عائقاً فعلياً أمام تنمية المجتمع، فإننا نجد أن هناك من يدافع عن أنصار الفن للفن، ويلتمس عذرًا لهم فيما ذهبوا إليه، ويمكننا أن نلمس هذا الأمر بوضوح عند جيروم ستولينتز في كتابه "النقد الفني"، حيث أكد فيه على أن الفن للفن، يعتبر دفاعًا عن التجربة الجمالية للفن، فالفنون لا تخدم شيء على الإطلاق، والفن الحقيقي حتى لو تعارض مع ما نمتلكه من أخلاق، لا يمكن أن يكون مفسدة للحياة، فالفن للفن يعمل على إعادة التوازن الذى أخل به أفلاطون[3]، ولذلك فالأعمال الفنية التي قدمها

[1]- The Art World:ibid p98

[2]- ستولينتز: النقد الفنى ص535

[3] ستولينتز: النقد الفنى ص531

بودلير، وغيره من الروائيين الفرنسيين، تعد من وجهة نظر ستولينتز إدانة خافية للشر، توقظ الجمهور من غفلته الأخلاقية، وبالتالي تزيد من حساسيته للشر[1]،

غير أن هذا الرأي لا يحظى بالقبول التام لدينا؛ إذ ليست المشكلة من وجهة نظري في أن يتعارض الفن مع الأخلاق أم لا، وإنما المشكلة تكمن في أثر المعالجة السلبية للأخلاق أيا كان نوعها، وآية ذلك أن الفنان قد يختار أقبح الأشياء الموجودة في الواقع، ولكنه يحرص على أن يقدم لها معالجة إيجابية تذكرنا دائمًا، بأن هذا القبح نوع من الشر، يجب الابتعاد عنه، ومن ثم يسهم بدوره في نشر القيم والمبادئ الإيجابية بصورة غير مباشرة، ويعمل على رفع مستوى الوعى لدى المتلقي؛ وهو ما يؤثر بدوره تأثيرًا إيجابياً في تنمية المجتمعات . وفى هذا السياق يمكن القول بأنه كما يسهم الفن الراقي في رقى الروح والوجدان، يسهم الفن الرديء أيضًا بما يفيض به من تعبيرات عارية من الحياء في انهيار الروح وتشتتها، ويبدو لي أن هناك حالة واحدة قد يصح فيها القول: بأن الفن الرديء لا يصنع إنسانًا رديئًا، أو ليس مفسدة للحياة، وهى الحالة التي يصبح فيها المتلقي على قدر كبير من الخبرة والثقافة والأخلاق والتدين، قدر يكفل له الحصانة من أي أثر سلبي قد تثيره مثل هذه الأعمال في نفسه، أما فيما عدا ذلك فإنني أؤكد على أن الفن الرديء يهدم توازن النفس ويشتت عقل صاحبها .

ومن ناحية أخرى يمكن القول: بأنه إذا كان جيروم ستولينتر، أو غيره من النقاد يرون أن كل من فلوبير و بودلير، كان يقصد من تعبيراته عن الرذيلة نوع من التنوير الثقافي، الذى قد يؤدى بصورة أو بأخرى إلى النفور من الرذيلة واحتقارها، فإنني أرى أن مثل هذا الرأي لا يشكل قاعدة عامة يمكن أن يعول عليها، وذلك لسببين: الأول هو أن هذا الرأي يعتمد بشكل أساسي على معرفة نية الكاتب عند تقديم أعماله، وهو أمر لا يمكن حسمه بدقة، وإنما يظل في دائرة التكهنات التي لا ترقى الى مستوى اليقين، ما دام الفنان نفسه غير حاضر، ليوضح لنا وجهة نظره.

والسبب الثاني: يتلخص في أن فكرة تجسيد الفن للأخلاق السلبية، يوقظ الجمهور من غفلته الأخلاقية هي فكرة لا تحظى بالقبول لدينا، فكيف أنقذ الجمهور من غفلته الأخلاقية بتجسيد التدهور الأخلاقي له فنياً! وكيف أوجه المتلقي إلى أخلاق أرقى، وأنا أصف له سلوك جنسي لا يليق ذكره عادة، مثلما تمثل في أزهار الشر، أو في رواية مدام بوفاري.

[1] –جيروم ستولنيتز: النقد الفنى ص539

وحسبي أن أشير أيضًا إلى أنه إذا كان هناك من يرى أن تجسيد التدهور الأخلاقي ليس من اختراع أصحاب الفن للفن، وإنما هو جزء من الحياة، لا يمكن للفن أن يتجاهله إذ يعد ابتعاد الفن عن تجسيده نفياً للفن نفسه، وذلك لأن الهدف الأساسي من الفن؛ هو تمثيل الحياة بكل أبعادها، وبالتالي من الصعب إبعاد الفن عن تصوير هذا التدهور الأخلاقي .فإننا نؤكد على أن الفن لا يمكن أن يكون إعادة تمثيل للحياة، وإنما الفن يشرح الحياة، ويفسرها ويصدر الحكم على ظواهرها أيضًا[1]، فليس الهدف الأساسي من الفن تمثيل التدهور الأخلاقي الموجود في الحياة، وإنما هدف الفن هو صنع الجمال، الذى يؤدى إلى رقى الروح لا تشتتها، بل ويمكن القول بأنه منذ أن أصبح الفن تمثيل للحياة، بدون معالجة تنقيها من الشوائب الأخلاقية، زاد انحطاط الفن وزاد تفسخ المجتمع؛ وهو الخطأ الكبير الذى وقعت فيه نسبة، لا يستهان بها من فنون ما بعد الحداثة .

ومن هذا المنطلق يتراءى لي: أن أصحاب هذا المذهب وخاصة الفنانين الذين تحرروا من كل القيود الأخلاقية، أو تجاوزت حريتهم في التعبير كل حدود حرية التعبير، إذ فاضت أعمالهم بتعبيرات صدمت حياء المتلقي، قد فهموا الفن للفن بطريقة مغلوطة، لأن الفن للفن كما أفهمه لا ينبغي أن يكون دعوة للإباحية، أو مبررًا للتحلل التام من الأخلاق، وإنما هو باختصار عدم الترويج بشكل مباشر، لأي مذهب أخلاقي خيرًا كان أم شراً، وذلك لأن براعة الفنان في تجسيد الشر أو القبح، تجعل هذا الشر أكثر جاذبية من الخير.

غير أننا نلاحظ أن حرمان الفن من القيام بأي دور مؤثر، في أنشطة الحياة العملية من جانب أنصار الفن للفن، لم يقتصر على فصله التام عن الأخلاق فحسب، وإنما تجلى أيضًا من خلال تأكيدهم على أن الفن غاية في ذاته، وأنه غير ملزم بتحقيق المنفعة أيضًا، وذلك لأنه ليس هناك من جميل حقًا، إلا ما خلا تمامًا من كل غرض، وتبعا لذلك فالأعمال الفنية، كما يزعمون لم تأت إلينا إلا لنتأملها، ونشعر بها لا لنستخدمها أو ننتفع بها، وذلك لأن الفن غير مطالب بأن يكون له أي أهداف خارج ذاته، كأن يجعل حياتنا أجمل، أو أن يجعلنا أفضل من الناحية الصحية، وانما يكون الفن ذو قيمة بذاته، ومصدرًا أساسيًا للمتعة الحقيقية بذاته [(2)]، أي أنه غاية وليس وسيلة لأى غاية أخرى، حتى ولو كانت هذه الغاية هي جعل العالم أفضل، وذلك لأنه ليس هناك في دولة الفن سوى عبادة الجمال، الذى هو غاية الغايات من وجهة نظر أصحاب هذا الاتجاه .

[1] –Plekhanov. G.v: Art and social life, tr .by Fineberg.A, progress publishes press, 2nd, 1957 p:4

[2] -Hanny.A.H:The Concept of art for art's Sake,philosophy,vol.29,No.108(Jan.1954)p44

والمتأمل في وجهة النظر هذه بما تنطوي عليه من أفكار نظرية، يمكنه أن يجزم بأن أصحاب هذا الاتجاه، لم يحرروا الفن من أي سلطة أخلاقية أو نفعية فحسب، كما كانوا يزعمون، وإنما هم قد غالوا بشكل ملحوظ في هذا الأمر، فاستبعدوا الفن تمامًا من مضمار الحياة، وحرموه من المساهمة بدور حيوي وفاعل في تنمية المجتمع، وذلك لأن إقامة حاجز بين الجميل والنافع، لن ينتج عنه إلا فن هروبي منعزل عن المجتمع.

ويبدو لى أنهم بذلك قد أغفلوا شيئًا غاية في الأهمية؛ وهو أن الفن الحقيقي لا يمكن عزله عن الحياة بشكل تام، بل هو كما يقول جون ديوي: إنعاش للحظة الحاضرة، وليس انعزال عن الحياة، لأنه ببساطة نشاط إنساني، وكل ما هو إنساني، يكون وسيلة لتحقيق غرض ما، والدليل على صحة ما نقول: أن الفن لم يكن في يوم من الأيام عبثًا لا طائل تحته، ولا جدوى من ورائه، وإنما كان، وما زال تعبيرًا صادقًا عن إحساس الفنان بهموم مجتمعه، وتاريخ الفن نفسه، بل وتاريخ البشرية كلها يؤكد لنا ذلك، فالإنسان منذ القدم، لم يتجه لإنتاج أي شيء إلا لأهميته في حياته العملية، وحتى عندما رسم الإنسان الأول على جدران الكهوف، فانه لم يفعل ذلك إلا لاعتقاده الراسخ بأن الصورة تمتلك قوة سحرية، وأن امتلاك الصورة يعنى امتلاك الأصل، وأنه بمجرد رسم صور الحيوانات تتيسر عملية صيدها[1] .

غير أننا نلاحظ كذلك أن الافكار التي يروج لها أتباع الفن للفن، لم تعزل الفن عن المجتمع فحسب، وإنما عزلت الفنان صاحب العمل الفني عن المجتمع أيضًا، وحولته من شخص فاعل ومؤثر إلى شخص مستقيل من الواقع، أو منعزل تمامًا عما يدور حوله، إذ ليس للفنان تبعاً لوجهة نظرهم أي دور أو عمل يفكر فيه على الإطلاق [2].

ويبدو لى: أنه قد غاب عنهم أن من العسير على الفنان الحقيقي، أن يتجاهل مشكلات المجتمع الذي يعيش فيه، وإنما دوره كفنان حقيقي يتلخص في أنه ليس بإمكانه أن ينعزل أو حتى يقف موقف المحايد تجاه قضايا مجتمعه، وإنما يكون دائم الالتصاق به، ينظر دائمًا بعين اليقظة والوعي إليه، ويسعى دائمًا إلى إحداث تغيير جوهري فيه، من خلال أعماله الفنية التي تنطوي على فكر تنويري داعم للمجتمع.

وربما كان هذا هو ما قصده ألبير كامي، حين أكد على أن الفنان ليس بشخص منعزل عن المجتمع، وإنما هو شخص يشارك في تنمية مجتمعه، ولكن بطريقته الخاصة التي يكون فيها، من أوائل المتمردين السباقين إلى التجديد فكرًا وتعبيرًا، فالفن على حد تعبيره ليس

[1] Read.H:Art and Society,London,Faber&Faber,1945,p9
[2]- john.C.Van Dyke,L.H.D: Art for Art's Sake p6

استمتاعًا هزيلًا أو ترفًا زائدًا، وإنما هو وسيلة مهمة لتحريك أكبر عدد من الناس، بأن يقدم لهم صورة مميزة للآلام والسعادة العامة، وحتى لو كان لدى الفنان ما يمكنه من الابتعاد عن الدخول في المعركة، فإنه لا يستطيع أن يبتعد عن أن يشهد بما يرى[1]، بل ويمكن القول أيضًا بأنه مهما استاء الفنان من الواقع إلا أنه لا يستطيع أن يتهرب منه تمامًا، وانما هو كفنان حقيقي يكون أكثر وعيًا بهموم مجتمعه، وأشد حرصًا على الإسهام في تطويره وتغييره .

خلاصة القول إذن: أن الفن لا يمكن أن يكون للفن فقط، وذلك لأن الفن كما يقول كولنجوود(1889-1943) عمل تنموي يقوم به فنان واع، يدرك تمام الإدراك أن عمله الفني ليس محاولة شخصية، يقوم بها لصالحه الشخصي، وإنما عملًا عامًا لصالح المجتمع الذى ينتمى إليه، وأنه لا يخصه بمفرده، وإنما هو عمل جاد يحمل دعوة موجه منه إلى المجتمع لكى يشارك فيه، إذ أن مهمة هذا المجتمع باعتباره متذوقًا، ليس تقبل العمل الفني تقبلًا سلبيًا، وإنما إعادة تمثله مرة أخرى[2]، ولكن تبعًا لاتجاه الفن للفن بنزعته الانعزالية، يكون تأثير الفنان في المتلقي أمرًا غير ضروريًا، وبالتالي فإن تأثيره في تشكيل النسيج الثقافي للمجتمع وفى التنمية يصبح منعدمًا أو لا وجود له .

وربما كان هذا هو السبب الذي لأجله، لم يعد لهذا الاتجاه أي رصيد في الفكر الجمالي المعاصر. ويبدو لى أن هذا هو ما ذهب إليه بليكانوف عندما تساءل عن الفائدة، التي تعود علينا من وراء أفكار الفن للفن، وذهب إلى أننا لا نجني أي فائدة من وراء هذا الاتجاه، بل ويرى أن فكرة الفن لأجل الفن فكرة غريبة في عصرنا؛ وهي لا تختلف عن فكرة العلم لأجل العلم فكلاهما عديم الفائدة، لأنه لا يوظف نفسه لخدمة الأنشطة البشرية[3]، وإذا كنا نرفض أن يكون هناك علم لأجل العلم، لأن العلم يجب أن يوظف لخدمة البشرية بالكامل، فكذلك من الضروري أن نرفض، أن يكون هناك فن لأجل الفن، لأن كل أنماط الثقافة يجب أن توظف لخدمة الأنشطة البشرية، وبدون ذلك تظل الثقافة بكل إفرازاتها عديمة الفائدة، فالعلم موجود لكي نستفيد منه، وكذلك الفن يجب أن يخدم غرضًا مفيدًا، أو لا يكون لأجل المتعة

---

[1]- جان بارتليمى: بحث في علم الجمال، ترجمة انور عبد العزيز، مراجعة نظمي لوقا، دار النهضة، مصر الفجالة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرو نيويورك،1970، ص474

[2] Collingwood. R.G: The Principles Of Art, A Galaxy Book, New York, Oxford, University, Press, 1958- p315.

[3] - Plekhanov. G.v: Art and social life, tr .by Fineberg.A, progress publishes press, 2nd, 1957 p:3&6

فحسب[1]، وذلك لأن الفن الحقيقي لا يمكن أن يكون للفن فقط، وإنما الفن للحياة وللتقدم والتنمية .

خامسًا التعقيب: كيف نصل لتنمية حقيقية للمجتمع؟

في ضوء ما سبق يمكن القول: بأنه ليس بإمكاننا أن نصل لتنمية حقيقية، من خلال آراء أفلاطون وحده، فقد نادى من جانبه بتجميل الواقع، وتجاهل تمامًا أن الشر جزء من الواقع، لا يمكن تجاهله، ولا تجاهل ما يترتب عليه من نتائج، هذا فضلًا عن أنه قد قصر معنى التنمية على تنمية المجتمعات سياسيًا واقتصاديًا، وأصر على أن الفن مجرد دعامة للأخلاق وللنظام السياسي والاقتصادي.

وكذلك لا يمكننا تحقيق التنمية من خلال أفكار اتجاه الفن للفن، لأنه اتجاه يعزل الفنان عن المجتمع ومشاكله، إذ يزعم أنصاره أنه ليس في دولة الفن إلا عبادة الجمال؛ فهو غاية الغايات، وبذلك قصروا كل دور الفن على مخاطبة الحاسة الجمالية وحدها، والتمسوا الفن لأجل الفن ذاته، وضحوا بالفضيلة من أجل اللذة، وقدموا أعمالًا فنية غالت في تصوير القبح، وساهمت في تدمير الروح وتشتيتها.

هذا فضلًا عن أن الصراع بين هذين الاتجاهين قد كشف عن تناقض حاد في وجهات نظر كل منهما ، فالفن للفن هو سجن الفنان في إطار الشكل، والفن للمجتمع هو سجن الفنان في إطار المضمون، والسجن في كلتا الحالتين يمنع الفنان من تبليغ رسالته الكاملة، تلك الرسالة التي من الضروري أن يتعانق فيها الشكل مع المضمون، وأن تنبع من المجتمع، لتشارك في تغييره وتنميته، ويتراءى لي أن السبب في هذا الصراع؛ هو سيطرة التطرف الفكري على كل منهما ، فإحداهما يغالي في المادية والنفعية، والآخر يغالى في الذاتية، وكلاهما في تقديري قد عجز عن استيعاب ماهية العمل الفني، إذ يركز كل اتجاه منهما بطبيعة الحال على جانب معين من جوانب العمل الفني، ويهمل باقي الجوانب الأخرى، وبذلك تورط كلاهما في خطأ فادح، وهو عزل مادة الفن عن صورته، وهو ما يعرف في علم الجمال بالتجريد الباطل .

وأعتقد أنه كان من الممكن ألا يصل الخلاف بينهما إلى هذا المنحدر الخطير، لو انتبه كل منهما لماهية الفن الحقيقية، التي تتلخص في أنه ليس بتابع للأخلاق، ولا هو ببعيد عنها، وهو كذلك لا يكون مجرد أداة للمنفعة، ولكنه في الوقت نفسه ليس ببعيد عنها وذلك

[1] – Plekhanov. G.v: Art and social life, tr .by Fineberg.A, progress publishes press, 2nd, 1957 p:3

لأن الفن عندما يكون أصيلًا، فإنه يجمع في أصالته بين الجمال والمنفعة والأخلاق، ولهذا أرى أنه ليس هناك في مجال التنمية ما يدعو إلى التفرقة بين فن للفن، وفن للمجتمع، وذلك لأن الفن الحقيقي لا ينفصل عن الحياة فصلًا تامًا، بل له دوره المؤثر في تنمية المجتمعات. من خلال قدرته على تقديم قراءة حرة واعية لمفردات الواقع، تسهم في تحقيق التنمية، أو دفع عجلتها إلى الأمام، والدليل على صحة ما نقول إن الإنسان في كل العصور والمراحل التاريخية، قد حرص على أن يبدع الفن، كما يبدع العلم والأخلاق، وكما شيّد النظم السياسية والاقتصادية، فانه قد شيّد أيضًا النظم الثقافية التي تساعده في التعرف على ذاته.

بحيث يمكن القول: بأن أهمية الفن في مجال التنمية، توازى أهمية العلم في مجال التقدم التكنولوجي، وأهمية الصناعة في مجال الاقتصاد، فكما أنه من الضروري وجود العلم الذي يصل كل يوم إلى نظريات متطورة، تدفع المجتمعات إلى الأمام، وكما أنه من الضروري أيضًا وجود رجال الصناعة، ورجال الأعمال لدفع عجلة الاقتصاد إلى الأمام، فكذلك يكون من الضروري وجود طبقة من الفنانين المثقفين، تشخص حالات التخلف التنموي، وتقود المجتمع، وتدفعه أيضًا إلى الأمام.

ولعلني لا أبتعد عن الصواب كثيرًا حين أقول: أن الفنانين والأدباء، قد أجادوا في تحليل وتفسير أحوال المجتمع، وساهموا في تطويره، مثلما فعل رجال الاقتصاد والسياسة، كل بطريقته الخاصة، بحيث يمكن القول بأن سبيل التنمية أو النهوض المجتمعي، لن يكون ممكناً إلا بوضع سياسات ثقافية، ركيزتها الأساسية الفنون شريطة أن تتسم هذه الفنون بسمة نقدية، تستبعد كل مالا يتفق مع روح التقدم أو يعوقها، ولابد من إبداع أعمال هادفة، تسعى إلى تطوير الوعى الإنساني، بترسيخها لمجموعة من المبادئ والأهداف التربوية والأخلاقية، أي أنه باختصار من الضروري إعادة النظر فيما تقدمه الفنون لنا إذا أردنا تنمية حقيقية .

ومن الضروري كذلك أن يحدث تعاون بين الفن وباقي أشكال التنمية، لأن التنمية الفعلية تحتاج لكل العناصر، فلا تنمية باقتصاد فقط أو علم فقط أو فن فقط، إذ لا تكفل التنمية الاقتصادية بمفردها النهضة والتطور الحقيقي للمجتمعات، وإنما يمكن وصفها بأنها محدودة إذا ما قورنت بالعلم والفن ، ولتوضيح ذلك يمكن القول: بأنه إذا أردنا تنمية لمدة عام أو أعوام، فيجب أن نعمل في مجال الاقتصاد، كأن نبنى مصنعًا أو نؤسس مزرعة أو شركة، أما إذا أردنا تنمية مستدامة، فإننا نعجز عن بلوغها بدون بناء الإنسان بناءً حقيقيًا، والإنسان لا يبنى هكذا إلا بالعلم والفن، فهما وسيلتان اختراعهما الإنسان من خلال تجربته الطويلة، في التكيف مع البيئة المحيطة به، يتكاملان في وظيفتهما ولكنهما يتعارضان في

طبيعتهما، فإحداهما يقدم له الغذاء المادي الذى يسهل عليه سبل الحياة وهو العلم، والآخر يقدم له الغذاء المعنوي الذى ينعش الروح ويرقق الوجدان؛ وهو الفن، والجانبين معاً لابد أن يتكاملا في كل تنمية حقيقية. وذلك لأن التنمية الحقيقية تكون تنمية اقتصادية، وثقافية واجتماعية في آن واحد، أو هي مثلث متساوي الأضلاع اقتصاد وعلم وفن.

ولا أجد عبارة أختم بها حديثي في هذا الموضوع، سوى اتفاقي مع العقاد حين يقول: إن الفنون الجميلة ضروريات في الأمم، وإن عدت نوافل في آحاد الناس، وأنها ضروريات لمن ينشد العيش الأكمل، ولا يقنع بكل عيش، وأنها ضروريات لمن سأل كيف نسود؟ وإن كانت هباءًا عند من يسأل كيف يعيش، وأحرى به أن يسأل كيف نموت؟ فعيش هذا وموته سواء، فالفنون الجميلة أصبحت من الضروريات، وخاصة في العصر الذي نعيش فيه، وهذا من البديهيات إذ تسهم بشكل كبير في تشكيل وعى الإنسان، والوصول إلى رفاهيته وسعادته، وتقوم بوظيفة تربوية هامة، ولها تأثير بالغ في الحياة النفسية للأفراد، ولكن الغريب أن السؤال عن فائدتها وأهميتها في تنمية المجتمعات، ما زال يتكرر وما زال الكثيرون ينكرون أهميتها في التنمية الشاملة حتى الآن وللتخلف أسباب![1]

[1] العقاد: مقالة بعنوان بل ضرورية جدا،مجلة الرسالة للآداب والعلوم والفنون،العدد 203، 1937،القاهرة

قائمة المصادر والمراجع:

1. ديفيد انغليز وجون هغسون: سوسيولوجيا الفن، ترجمة ليلى الموسوي ومراجعة محمد الجوهري، عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والثقافة والفنون والآداب الكويت ،2007

2. احمد فؤاد الاهواني: جون ديوي، دار المعارف، سلسلة نوابغ الفكر الغربي ،1959

3. سيدني فنكلشتين: الواقعية في الفن، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، مراجعة يحيى هويدى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة،1972

4. ارنست فيشر: ضرورة الفن، ترجمة أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1998

5. [1] - Plekhanov. G. v: Art and social life, tr .by Fienberg, progress publishes press, 2nd, 1957

6. اروين ادمان: الفنون والانسان، ترجمة مصطفى حبيب، تقديم ماهر شفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب،2001

7. راوية عباس: فلسفة الفن وتاريخ الوعي الجمالي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،1996

8. العقاد: الأدب والنقد، المجموعة الكاملة، المجلد السادس والعشرون، دار الكتاب اللبنانى، بيروت،1984، الطبعة الاولى وانظر

9. جويو: مسائل فلسفة الفن المعاصرة، ترجمة سامي الدروبي، دار الفكر العربي

10. أفلاطون: الجمهورية، نقله إلى العربية شوقي داود تمراز، الاهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1994

11. زكريا ابراهيم: فلسفة الفن في الفكر المعاصر، مكتبة مصر، الفجالة ،1988،

12. Tolstoy. Leo: What Is Art, Ed by G. Lee Bowie In (Twenty Questions, And Introduction to Philosophy) Harcourt Brace Jovanovich Publishers San Diego, New York

13. سارتر: ما الأدب، ترجمة محمد غنيمي هلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،2000

14. جيروم ستولينتز: النقد الفني، دراسة جمالية وفلسفية، ترجمة فؤاد زكريا، مطبعة جامعة عين شمس، 1974.

15. أفلاطون: محاورة القوانين، ترجمه من اليونانية إلى الانجليزية تيلور، ونقله الى العربية محمد حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986.

16. العقاد: مقالة بعنوان، بل ضرورية جدًا، مجلة الرسالة للآداب والعلوم والفنون، العدد 203، 1937، القاهرة

17. The Art World Journal: Art for Art's Sake, it's Fallacy and Viciousness, Vol.2, (May,19 17) p98, stable URL://www.jstor.org/stable/25587887,Accessed:23-01-2017,19:03UTC

18. -John -Van. Dyke, L.H.D: Art for Art's Sake, N. Y, Charles Scrilner's Sons,1893, p.6

19. مالكوم برادبرى، جيمس ماكفارلن: الحداثة 1890-1930، ترجمة مؤيد حسن فوزي، بغداد، دار المأمون للترجمة والنشر،1987

20. Croce. B: Guide to Aesthetics, Tr. By Patrick Romanelli, Regnery, Gateway, Inc, 1965

21. جان برتليمى: بحث في علم الجمال، ترجمة أنور عبد العزيز، مراجعة نظمي لوقا، دار النهضة مصر الفجالة –بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر–القاهرة–نيويورك 1970،

22. Rader.M & Jessup.B: Art and Human Values, Prentice-Hall, N.Y-1967

23. Tolstoy, L: What Is Art?, Translated by Aylmer Maude, A Hersterides Books, New York, Oxford, University Press, 1962

24. العقاد: الأدب والنقد، المجموعة الكاملة، المجلد السادس والعشرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الاولى،1984

25. عبد الغفار مكاوي: ثورة الشعر من بودلير إلى العصر الحاضر، الهيئة المصرية العامة للكتاب،2013

26. Plekhanov. G. v: Art and social life, tr .by Fienberg, progress publishes press, 2nd, 1957

27. Hanny.A.H:The Concept of art for art's Sake,philosophy,vol.29,No.108(Jan.1954)

28. Read.H:Art and Society,London,Faber&Faber,1945

29. -john.C.Van Dyke,L.H.D: Art for Art's Sake

30. Collingwood. R.G: The Principles Of Art, A Galaxy Book, New York, Oxford, University, Press, 1958.-